والآن آن
لي أن لا أئن
جمال كريم

والآن آن
لي أن لا أئن

جمال كريم

اســـــم العـــــــــــمل :- والآن آن لي أن لا أئن

اسـم الكـــــــــــاتب :- جمال كريم

تـــــــدقيق لغـــــوي:- جمال كريم

(تصميم غلاف وإخراج فني فريق)

تصميم الغلاف :- ذات النطاقين

إخــــراج فنـــي :- ياسمين فوزي (حنين)

جميع الحقوق محفوظة للناشر وأي انتهاك سيعرض صاحبه
للمسائلة القانونية
« هذه النسخة مخصصة للقراءة فقط، ولا يجوز إعادة طبعها
أو نسخها أو نشرها إلا بعد الحصول على إذن كتابي من الناشر»

تحت إشراف بوفار

تم إخراج هذا الكتاب بواسطة دار بوڤار للنشر الإلكتروني:

أسرة فريق بوڤار للتصميم

أسرة فريق بوڤار للتنسيق

أسرة بوڤار للتدقيق اللغوي

تحت إشراف مجلس إدارة بوڤار

أ /أحمد صالح **أ /محمد جاسر**

جمال كريم :كاتب وروائي وقاص مغربي

_ حاصل على الإجازة في الدراسات العربية

_ماستر آليات تحليل الخطاب الأدبي

***المؤلفات:**

_الرّبان البارع :قصة قصيرة عن منشورات رونق، الراصد الوطني للنشر والقراءة.

-والآن آن لي أن لا أئن :رواية

-تجليات المسرح الاحتفالي :موسم أبي يعزى يلنور نموذجا : دراسة أدبية

-دراسة نقدية لرواية الراقصات لا يدخلن الجنة ، عن مغرب الثقافة

المستقر هاهنا :شعر ، عن مغرب الثقافة

Facebook: valdivya karim

karim-Instagram: #valdivya

WhatsaApp:+212677194442

إهداء

إهداء لن يكون إلّا لمن سهرت اللّيالي ، كي يصبح قلبي هادئا كالفرصة التي بين الشهيق والزفير .

هادئا كفراشة ثملةٍ سقطت على لحية شيخ أعمى...

إهداء لمن زارت الظلام ، قبل زيارة مكّة وقبر النبي صلّى الله علي وسلم ، لن ينام لي جفن حتى تُقَبِّلي الحجر الأسود .

لن يكون إلا لأمي: سيدة السيدات .

-و لأبي * قائد القرية الافتراضي* .

-لإخوتي : طيور على أشكالها تقع.

-لجدتي رحمها الله وأسكنها فسيح الجنان : رائحة أصيلة لا يكرّرها الزمن .

كل تشابه بين شخوص الرواية ، وأشخاص واقعيين هو من قبيل الصدفة والمصادفة فحسب ، فشخوص الرواية محض تخييل ، رغم ورود فضاءات وسياقات واقعية .ورغم أنّه من المستحيل أن يكون الخيال وحده هو الطين الذي غمست فيه يديَّ لأخلق شخوص روايتي ، فقلمي مثل الإسفنجة، امتصّ كثيراً من التجارب التي اجتزها ، والأشخاص الذين عبرتهم وعبروا ذاكرتي ، لكن لابدّ من إعلان براءة الذِّمة.

-وأنا المسافر داخلي، وأنا المحاصر بالثنائياتِ...

-لم يعد بداخلي وطن ألجأ إليه ، كل ما بداخلي غربة...

محمود درويش

1

*****غارة المناجل*****

كان يراقب النافذة وحيداً كحدادِ شجرة غادرتها الطيور في رحلة الشتاء والصيف متسائلا:تراه هذا الذي صنع النافذة أكان عاشقا أم سارقا ؟

وقبل أن تُلملم شمس الغروب أغراضها ، تجلّت من وراء الربوة جلنار بفستان أبيض فضفاض ونادته من بعيد:- ڤالدي لماذا جئت ولم تخبرني. ؟

فتحتِ الأنفاق العكرة التي تدوي في دمه ، وتلعثم كمحنة الفتى المؤمن مع الأصنام ، وسمع طقطقات أسنانه كأنه في صباح بارد من شهر آذار.

- نعم جئت وأخبرت قلبي وحده. وهذا يكفيني، أنا هنا وساعة يدي تشير إلى أنا إلاّ ربع ولا أحد يشارك عقارب ساعتي.

اقتربت من النافذة وحرّكت عينيْها الحادّتين كأنّهما شمس شروق تسلّلت من بين أغصانٍ عارية لتقبّل البحيرة ، وردّت بجواب متقطّعٍ كنحلة مثقلة بالرحيق تُحرّك مجذفيْها بعناء:-ڤالديڤيا سألتك لماذا لم تخبرني عن مجيئك ، وعن أين كنت ؟ .أنا أعرف أنك أخذت المكان وغادرت ،لكنك أخذت الزمان ولم تغادر.

لاحت في أفقه ذكريات كنقوش حجرية عصيّة على النسيان، ذكرياتٌ تدرّ الرماد في العيون .

-جلنار اسمعي من الأحسن أن لا أراك رغم انتظاري لك فْلتعلمي أن الزمان سيمرّ مرور قطار ذو اتجاه واحد لا تعنيه المحطات، وأنّ لكلّ قطار وصول ، كما لكل وردة ذبول. سيصبح وجهك كلوحة تجاعيد رُسمت بدون جرّار أومحراث ستنسَيْن ويمرّ كل مرّ.

-ڤالدي لِم تحكم على أحلى وأرقى الارتباطات والوشائج بالإعدام مع التنفيذ؟ وكيف تفكّر في ذبولي وأنت لم تسقيني يوما ؟

-((قد نقتل الأشياء الجميلة في حياتنا فقط لأننا قد نحبها ، لأننا فعلا لا نملك إلّا أن نقدسها كمحاربين ما دمنا اخترنا لشخوصنا وأنفسنا أن نكون قربانا للحب، فلنقتل كل ما نحب ونقدس الفراق قبل الأوان لأننا حتما سنفترق يوما فاللهم لنفترق الآن.))

فجأة تسلّطت عليهما زكية بمشط ذو مقبض فضّي وكيس نقود شبه فارغ.وجد في مجيئها فرصة للهروب من نحيب جلنار ،فتح الكيس فوجد فيه بضع عملات نقدية صفراء فاقع لونها لا تسرّ الناظرين، قهقه مواريا ضحكه وقال لها وقد أَدْلقَ إلى داخله ابتسامة كبيرة لايريدها أن تظهر على شفتيه : يا زكية من يراك تحملين حقيبة ذهبية وتَتحرّكين برشاقة كرياح عديمة الحياء تداعب شعر النساء يقول في قرارة نفسه أنك مليونيرة .

ضحكتا بشراهة ،حينها بدت جلنار كفزّاعة تؤنس الحقل بعد غارة المناجل،

وغادرت زكية المجلس ببطء كشمس تستحم في البركة قبل غروبها.

ها قد أُطلق العنان لحوار يغلي على صفيح ساخن،مالبث ڤالديڤيا يرتاح قليلا من ثرثتها حتّى سمعها تغمغم متكلمة داخل ملابسها مسترسلة "وغد" فقرأ في أرنبة أنفها نذيرا زاحفا مهددا بالخراب.

قالت دون أن تلتفت إليه كأنما تخاطب المرايا المنكسرة:

- تنتظرُني في النافذة ولا تريد رؤيتي..! حلل وناقش ؟

سألها دونما رحمة كمحراث يدفن الأوراق والحبوب ذهابا وإيابا :

- أرجوك اصمتي ،ألن تدع هذا اليوم يمرّ بخير ؟

شعرت بإلحاحه و همست بلطف وهي تداعب شعرها الذي تبيّن فيه الخيط الأبيض من الأسود .

- ألا تراني أنني ألطف من قطر الندى ولكن يبدو أني لا أعجبك يا ابن فاطمة وأن عقلك وقلبك مشغولان بفتاة أخرى.

رفع رأسه ولمح وجهها مكسوّاً بتجاعيد كشقوق تهدّد البنيان بالهدم ،هو يحبها لكنه لا يعرف لماذا أضحى يتهرب منها، هل لكثرة نحيبها، أم ربما مزاجها المتقلب الذي يبدو ككثبان رملية تعشق الترحال كلما هبت ريح تغيرت وجهتها ، أو ربما شيخوخة وجهها المبكر رغم أنها في ربيعها الثالث والعشرين، أو ربما جمال أختها الساحر الذي خطف نظره .وعنفوانها الباذخ

كصيف حارق الذي آسره في منفى الاختيار.

أراد أن يخرجها من قوقعة حزنها كما تخرج شمس شباط البراعم من سباتها.

و قال بصوت يكاد يسمع :-أنا أعرف أنك ألطف من قطر الندى.لكن يا جلنار أنا غير صالح للحب، ووقت الحب عندي قصير،يمتد على زمنه الفصيح الذي لا ينغّصه شيء حتى ولو كان دقيقا حقيرا، وأفضل مكان له هو بيت النعاس لاغير. هذا جلّ ما أعرفه وأؤمن به .

تنهّدت ورفعت يديها وكأنها زهرة لوز تقدّم مأدبة عشاء للنحل .

-اسمع يا كريم أو يا ڤالدي كما يحلو لك أن أناديك :

وللناس فيما تعشق مذاهب ، وأنا عشقتك وأنت مذهبي.

أطبقت شفتيها وطأطأت رأسها و تجلّت في وجنتيها حمرة كحبّتي كرز، لكنها استفاقت من أحلام يقظتها على صوته الفخم المفعم بالعصبية .

-جلنار ارجوك احذفي من مخيلتك فكرة ارتباطنا فهذا لن يقع ، حتّى ولو غرقت في بحر العرائش.

تمسكت بأملها الضئيل المشابه لتلك النافذة الصغيرة، التي مهما صغُر حجمها، إلا أنها تفتح أفاقاً واسعة في الحياة.

وقالت : - ربّما سأنساك . إذا صفّق الأصم إعجابا بصوت الأبكم .

- ألم يقولواْ إنه إذا كنت تريد شيئا ما بقوة فأعطه حريته ؟ أعطني حريتي ،

أطلقي يديَّ.

- هو سؤال صادر بالتأكيد والمؤكَّد عن أحد لم يتعلّم يوما معنى أن يحب..

أو هو قولك وقول من ليس متفرّغا لأن يُحَبَّ.

لم يجد حلا لعنادها كان كلامها كالصخرة التي وُضعت على صدر بلال في بطحاء مكة ؛ لكنه كان يرى فيه شيئا من التمسّك . وعلى حين غرّة سمع صوتا عذبا رنّانا أخّاذا للأباب ،عرف أنه صوت الأستاذ حسن الرماني وهو يرفع آذان صلاة المغرب ، تنهّد وكأن أبا بكر أزال عنه الصخرة وحرره ورفع سجادته الخضراء الخالية من الزركشة وذهب مهرولا نحو المسجد .

2

*****عريس مع وقف التنفيد*****

عاد من المسجد مطمئن البال، وجلالة المكان رفعته من الأرض، لتعرج بدفقاته الشعورية في عنان السماء ولسانه يردد ما سمعه من الذكر الحكيم في الركعة الثانية *{ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ *} .

واجتمعت الأسرة حول مائدة خشبية صغيرة بثلاثة أرجل ونصف ،الأب والأم والأخت وابنتي الخالة جلنار وزكية والجدّة بوحة التي ابتدأت الحوار:

-لن أشهد الصيف القادم ،هذا ما تشعر به صحتي ، وعروقي.

فقالت الأم : -ربنا يطول عمرة يا "بوحة".

وقال الأب : -ستتحسن صحتك يا <"حينانو".>بفضل الله عزّوجلّ ورعايته .

استرسلت العجوز قائلة:-السعيد من يذهب في هذا الزمن فالأموات نجوا من الحياة بأعجوبة.

تدخلت جلنار ملطِّفة الجوّ قائلة:-الله عليك يا محمود درويش ما أجمل حكمتك

ضحك الجميع وفاجأتهم الجدة بصوت خافت يجرح مزمارها الصوتي الذي يبدو أنه تآكل مع مرور السنين:- أتمنى أن أرى أحفادي من ڤالدي وجلنار قبل

يوم الرّحيل وقبل لقاء ملك الموت.

حاول ڤالدي إنقاذ الموقف وقال مبتسما:تقصدين قبل الصيف يا جدتي .

حينها تحدثت له نفسه قائلة :أنت عريس مع وقف التنفيذ ،ولكن يبدو أنك لن تحقق أمنية جدتك وستراها تحلق لمثواها الأخير وتسقط كورقة صفراء غادرت عشها بأجنحة لم تتعلم الطيران بعد ، لتسقط من شجرة العمر .

3

*****الرّبّان البارع*****

صعد السطح هو وقطته السوداء واستسلما لإرادة الليل،وبات ساهرا ساهدا كقمر يرعى قطيع النجوم في السماء ، واعتصرت في مخيلته شرذمة من السيناريوهات لم يشعر بمثل مرارتها من قبل. الجدة المريضة ، الأب وعربذته وصعلكته، جلنار و مصيرهما ، ومصيره هو ضد جيش البطالة الذي يغزوه كالغزو الإيبيري ، ويتكرر مثلما يتكرر الليل والنهار ، بعدها سمع صوت مكاءٍ خفيف من خلفه ، وقف إزاء الباب ولمح زكية تتسلق الدرج خلسة وبكل جرأة كنبتة اللبلاب ،كانت عيناه تتراقصان وتاه في عينيها مثل خيال إغريقي، وبصوت بريء مثل دحرجة الدمعة من العين قالت له :

-ألا يزعجك أن نجلس معا ؟

صمت طويلا كأنه نسي عادة الكلام، و أفاق من سباته قائلا :

-هل نامت أختك جلنار ؟

قالت بابتسامة وبمحاباة مستقيمة وغير مبالية كغصن عارٍ ،تحرّكه رياح الخريف :-أتصور ذلك ، ولايهمني ذلك في شيء أصلا.

نفحهما هواء خفيف فتح معه قميصه الآجوري، وتجلى في صدره شعر أشقر غجري ، بينما فعلت زكية مثله ، فكشفت عن جزء من نهدين كأنهما ثوأمي

حجل نائمين على صدرها .

اقتربت منه ووضعت ذراعها على خصره وحاصرته بقوة مثل صهيوني يحاصر قطاع غزة تحت الأنقاض، وساد الصمت ولا تكاد تسمع سوى أنفاس ساخنة ، أمسك رقبتها الضامرة ، وبدأ يلعب بيديه في شعرها كقلم يرعى قافلة الحروف في بيداء الورقة، تمايلت بالقرب منه، ملتوية عليه التواء أناكوندا استوائية .

اخترقته كأنها نصال باردة لا تمزّق فيه نسيجا ولا تقطّع له وريدا، أعادت صناعته على رغبتها الفاتنة، و طوَّقته كضابط شرطة يحدد معالم الجريمة ، تقارب الخصران، روائح كفرح مدوّخ ، خصر نحيل وأرداف ممتلئة ، وشفتاها تهلاّن كإكليل ورد مرصّع بالعسل ، مزدانة بالحلي والجواهر المنمّقة والمزوّقة والمنقوشة بنقش أصيل، في جيدها قلادة بلّورية تشع من العقيق الأبيض كضرب من الثلج المشكّل ، لتنزل من رقبتها الناصعة في انسياب على صدرها كمياه منبع أم الربيع المنسكب في جريان دائم ،شم شعرها الأحمر الناري ، الملتهب كلاقة بركان، ولعب في شحمة أذنها اليسرى المزينة بقرطٍ ذهبي متدلي كدالية عنب .كاد يغمى عليه لولا تذكره لجلنار .اغتاله حزن كبير فهمس في أذن زكية اليسرى بصوت يجمع بين النشوة الأولى والحزن الثاني :

- هناك عطب داخلي يمنعني من هذا وذاك .

أدارت وجهها وأعطته قبلة مصحوبة بعضّة وضحكت كقطة شريرة وجدت جبنة، وانصرفت متدحرجة مع الدرج تدحرج كرة غولف تبحث عن الغار.

تنفس بعمق شديد وبلهفة كسجين سمع عفوه الملكي ونجا بسفينة شهوته للبابسة ، رغم عواصف البحر وحدث نفسه:

-يالك من ربان بارع. رغم ذلك أحس بالزّهو كأنه ذكر طاووس استطال ريشه حتى غطّى أنثاه.

4

*****كعكة ميلاد في ربيعها الخامس**"**

عبث بخصلات شعره بعض الوقت قبل أن يأخذ المرآة المثلثة، ينظر إليها بعين واحدة بعد أن أغمض عينه الأخرى، ليرى نفسه جيدا، تفحص وجهه فألفاه أملس كوجه رضيع، أملس كحجر تيمم، جبهة ضيقة وأنف منحوت قبَّل نفسه في المرآة وتوجه للأريكة الحمراء محاولا الاستسلام للنوم لكن ضجيج المعربذين حال دون ذلك.

قرب -مقرّ دار الشباب – استطاع تمييز صوت العرضوض والمدعو *برّعني* من بينهم ،بينما تأكد من وجود الأب في غرفته خائفا من وجوده معهم، واحتسى آخر قطرة من كوب شاي بارد،محاولا عبثا أن يستعطف النوم لكن الأفكار تتراقص وتطبخ في مخيلته على نار هادئة كشلّال شاي يحدث رغوة من فوهة الإبريق .ثم قرر الخروج من المنزل وأخذ بفم الدرب يسلكه عدوا متخبّطا في ظلامه الكثيف، قاطعا زقاقاً ضيّقا مليئا بالحفر التّي تحولت إلى برك بفعل مطر رعدي سابق .

الليل في الخارج مثل خيمة سوداء قاتمة ،و القرية تبدو بقِلّة مصابيحها ككعكة ميلاد في ربيعها الخامس ، لا أضواء ولا أعمدة مصابيح .

ـــ قرية عزلاء وأرض عاقر .

ـــأرض تتفنن في العزف على شواهد المحطات.

ـــدروب كنورس متغطرس يخطف لقمة غيره منتشيا .

ـــسكون جارح كعانس تقطن جوار قاعة الأفراح.

الساعة تشير للثالثة ليلا .

الوجهة ديور جداد :

لطالما كانت وجهته المفضلة ففيها ينعم بالدفئ وفيها يصفّي دهنه، ردّد بصوت لا يسمعه إلا هو وربّه " ومازال في الدرب دربٌ ومازل في الدرب متّسعٌ للرحيل" ، بعدما ضاقت به الدروب والأزقة ، وجد نفسه يدفع خطواته المتعبة عبر طريق غير معبّدة يعمّه صمت وهدوء مهول ، والظل الشاحب يتبع خطو صاحبه مهتديا بنور خافت آت من أعمدة بعيدة ، وجادله وأكثَرَ له الجدال: ((ما أخطرك أيها المنافق ، ياظلّي حتى أنت لا أعرف عنك إلا ماتريد أن تبديه لي ، يا شاحب يا أسود الخِلقة،تعرفني فقط تحت شحوب المصابيح ، تحت لهيب الشمس ، وفي ضوء الليل والنهار ، وتختفي في الظلمة حين أحتاجك يا ابن إبليس ، ابتعد عن مرافقتي يا هلامي يا خام. وحدك يا ظل إذا سقطت في الماء لا تغرق ، لكن كيف نغرق في ظلال بعضنا ، وحدك يا ظل تصمد رغم ارتطامك بالجدار، فهلّا علمتني الصمود ، لكن قبل هذا دعني أقضي حاجتي في الخلاء إن سمحت...)) .

5

*****شفرة الليل الطويل*****

وبجسد وروح يتوغلهما ألم ذو آثار واضحة لا تخطئه العين ، جلس كعادته على نفس الصخرة ، وتنهّد ببطئ وهو يتخبّط في ظلامه الكثيف،مهتديا ببعض المصابيح التي ماتزال معلقة في أعمدة حديدية ،ينبعث منها نور خافت خجول كأنه يستحيي من الظلمة فيحجم عن تعريتها ، وزمهرير البرد يلفح أذنيه ، وفي رأسه يتلولب السؤال :

-هل من أحد يقول لي من يفك شفرة هذا الليل الطويل ؟

مرة أخرى تناثرت الأفكار في مخيلته كحبات ذرة سقطت من يد فلاح نال منه الرعاش.

أكثر ما يرعبه ويهابه هي علاقة والديه بسبب عربذة وراش الأب السكير – السكير الأنيق- ناهيك عن مرض الجدة بوحة ، وحرارة زكية غير العادية تجاهه، وحب جلنار الصادق له.

لكن أين هو من هذا كله ، أين مستقبله بعد أن نجح وحاز على الباكالوريا بميزة "حسن"، حصل عليها وقد صُنِّف على رأس القائمة في شعبة العلوم الإنسانية. مستقبل غامض ينتظره ، هل يعض بنواجده على حلم الصحافة الذي راوده منذ الصغر؟ ، أم يسير فوق قنطرة الأدب العربي ويتجه

"لمكناسة الزيتون" لإتمام حلمه الآخر دارساً فيه ثنايا الأدب ؟ ، والذي لا بل ولن يأكل به الخبز في مجتمع أضحى الأدب أرخص عملة فيه، فمن يهتم بالشعر والرواية والنقد أمام هذا العري الإجتماعي في زمنِ -لا بركة مع السمارتفون- ، فزمن الكتاب خير جليس قد ولّى ،أم يحذو حذو أصدقائه الكُثر من القرية الذين أذعنوا لإرادة الخبز وآنخرطوا في العسكرية وتحزموا ب "السمطة" وتقيدوا باليونيفورم؟ .وحملواْ لواء الذّوْد عن حمى الوطن.

تناسلت الأسئلة في خلده كما يتناسل الجراد في طقس دافئ أسئلة منبعثة من مشيمة الوجود ترفرف كالأجنحة غير المنظورة حول رأسه لينتشر اليأس معها ويدب الشك إليه دبيب النمل الحثيث سيرا نحو جحره ودبيب ورم خبيث ينهش العظام نهشا، حتى هاجمه التثاؤب ولحسن حظه قبل أن يرخي الليل سدوله، أخرجه من متاهاته آذان الفجر بصوت حسن الرماني العذب، وكم ظل جامدا عند *الصلاااااة خير من النوم* وهو الذي حملق طيلة الليل في البدر وهو يخرج متسللا بين ثنايا غمامات تائهة.

نهض من فوق الصخرة وقفز من فوق مدرجات الملعب كقط ينط السلالم درجة درجة وآتجه نحو الفلاح.ليلتقي بمن لا تضيع عنده الودائع.

6

*****بغلة القبور*****

كان أول الخارجين من المسجد ، وبخطى متسارعة يطوي الطريق طيّا ،متجها للمنزل والنوم يداعب جفونه، وصل وتسلل عبر الدرج كي لا يوقظ أحدا ، وجد أمه تقرأ وردها المعتاد وراء الفجر ، لم يشأ أن يوقفها مكتفيا ب: تقبل الله ، ودخل حجرته واضعا ساعته السوداء على الدرابزين الرخامي وسرعان ماباغته النوم خصوصا وأنه استعان بستار أسود لتظليم الغرفة.

استفاق على وطأة شجار بين والديه، وراش هو الآخر لم ينم في المنزل تلك الليلة ، أين نام؟ ولماذا؟ وكيف؟ ذلك ماآكتشفته فاطمة من جارتها سعيدة زوجة صديق ورّاش .آكتشفت أنه خسر مليونا ونصف في الميسر ، ومازاد الطين بلّة أنه < كّملها وجمّلها > بمبيته في حضن نعيمة والتي تنعتها ببغلة القبور.

مالبث أن آستجمع عظامه المفككة حتى سمع صدى صفعة على أحد الخدود، طبعا سيكون خدها. هز كيانه صوت بكاء أمه ،طرطق مفاصله ومدّد يديه كمصلوب في حركة رياضية ، وهرع إليها كالظمآن على أمل التخفيف من وطأة الصفعة ، وارتمى في كنف حضنها محاولا إعادتها للحياة وإعادة الحياة لها، تراها حابسة أنفاسها مكتفية بالنحيب الداخلي جافلة من

الخوف ريثما يغادر ذلك القاسي. وصرخ في وجه وراش :

الضرب استراتيجية الفاشلين إياك أن تلمسها مرة إخرى وإلّا...

بدى الأب المسكين كحيوان بائس يدور في قفص زجاجي يلطم كل الاتجاهات في محاولات عبثية للفرار والتبرير وزاد من صراخه:

-أنا لم أختر دربي بل هو الذي اختارني، وصرت مربوطا مثل حمار البئر يحمل أسفارا ،بيس مثل القوم الظالمين، وجدت نفسي في هذا السبيل أعيشه كما هو مرسوم لي، لم أشرب الخمر يوما حبا في الخمر، ومن منّا أحبّ الضرر لعقله ؟ إنها الظروف يا ولدي حاولت عبثا إصلاح نفسي لكن طريق إبليس أدخلتني في متاهات عدة، غرقت بالديون وقهرني الرجال ، ولعل القدر دوما يحكم فخاخه في طريقه إلى رسم ما يسعى إليه، هذا القدر يصر على التطويح بي كشالٍ مع الريح. والسماء المكفهرّة تظلمني وتزيد العدوان عليّ ،كلما أردت الهدنة وعقدت صفقة التوبة والسلام مع القدر حتى صرت ككومة القش التي اتهموها زورا أنها تخفي الإبرة.

-كل هذا له حل ، لكن نعيمة ، نعيمة يا وراش ، بغلة القبور،،< الكلبة البوّالة ،كحلة العفطة شلاّ باش بدلتيني> وأنا التي صبرت وسهرت الليالي حتى كبر الأولاد ، لكن منك لله ، منك لله .

كجسم حار ساخنٍ تعلم الخمود بلا رجل إطفاء، وبصبر صمدي كصبر

الحصان المعد لمنحدرات الجبال ، انسحبت وقد اغرورقت عينيها وتشاجر الدمع فيهما ،عيناها اللتان تستمد منهما الأشياء شرعية الوجود والمعنى.

وانصرفت تسبقها شهقاتها ، أما وراش المذنب فجثى على ركبتيه وآنخرط في سعال متقطع مترافق مع جسد يرتعش وكأن أطرافه موصولة بأسلاك كهربائية عارية.

ويكأن سعاله آنتقل إلى بوحة الطريحة الفراش، سعال يذبح حبالها الصوتية ، المسكينة تأثرت بهذا الشجار ، تراها منكمشة على نفسها في ركن الغرفة ككومة القش وحدهما العينان تتحركان في ذهول ووجل ، واجمة في حياد كالأصنام ، خائفة كفأرة تنتظر شرا لا بد منه ؛ سمع سعالها فمالبث أن انتفض مستقيما كجندي يؤدي التحية العسكرية بنظام وانتظام لقائد السرّية ، ثم دخل الغرفة مرتميا على قدميها طالبا الصفح والعفو.

توأمت سبابتيها في حركة التصاق كأنها تناشده بمصالحة فاطمة ، ذلك مآستجاب له مناديا عليها، وتم الصلح أمام محكمتها الموقرة بسهولة تامة مع تغريم وراش بالسخط إن فعلها ثانية.

7

إرم ذات العماد

ساعدته في ارتداء سلهامه الأسود من ثوب الدّان، وكأنه قائد القرية، وتلك الهبة صيّرته رجلا يهابه الجميع ، لقبه في القرية :الحاج ورّاش لقب ينوء بحمله الشرفاء من الدواوير التي تتفرق بين هذه الهضاب ، خرج يسبقه عطر شتائي فوّاح كعبق زهر برّي بربري، مدخنا سيجارة بأناقة مبالغ فيها ، كثيرا ما تحمرّ وجنتيها ويتسارع النبض إلى فؤادها حين تراه في تلك الحال، كانت تدرك كل الإدراك أن وراء ذلك اللباس الرسمي امرأة ما تنتظر في الخارج ، لباس أنيق ب "بغلة القبور" لا يليق ، رغم ذلك تفر إلى إكمال زربيتها خيطا خيطا، وتسرق من دودة القزّ خيط حرير ،حيث علّمتها أمها الجلي والنسيج منذ الصغر رغم ضعف بصرها اليوم،أو تفر إلى المطبخ تماما كما كانت تفعل أختها حادة قيد حياتها - حادة التي لم تترك لها سوى ابنتيها جلنار و زكية – تفر إلى المطبخ لتهيئ وجباتها مستعينة بدندنة أطلسية مستهلة إياها ب موال " للشريفة" و "حادّة اوعكي " وكأن شيئا لم يكن ، تطهو طعامه على نار خشب هادئة وبزيت الزيتون محرّمة عليه زيت المائدة ، وتصنع خبزه بالخميرة البلدية ، ورغم ذلك كلما دخل يعوي من الجوع صرخ في وجهها المرعوب من التأخير ، وتجاوبه بصوتها المتلعثم رادّة اللوم على الجمر الذي

خبا تحت القِدر، وما تنفكّ نافخة على الجمر بفمها ورئتها لإنضاج الطعام المتأخر في رأيه ،حتى تثور زوبعة من الرماد فترشقها ،بعدها تحمل قُلَل ماء من زمن الأندلس من البئر المجاورة لمنزل العرضوض ، تلك البئر لا يغيض ماؤها ولا يغور بقدرة قادر ،أما سلهامه فيغسله بيده بصابون الحجرة لحاجة في نفس وراش قضاها.

غيَّر مقهاه ،هذه المرة اختار مقهى " بوگنين" اقتربت منه نادلة في عمر ابنته حسناء بلباس مغري،مستقيمة كنافورة من مرمر ورخام تفيض بماء أسود هو شعرها المطلوق ، سروال ضيق يكشف تضاريس جسمها، تيشورت أسود يتجلى منه منبت ثدييها كما بقي الجزء الاسفل من البطن عاريا تظهر من السرّة. وفتحت شفتيها قليلا:-أأُحضر لك شيئا أ الحاج ورّاش؟

ظل جامدا، متصلّبا كمحنة المسيح ولم يعد يدري ماذا سيطلب ليشرب، منتظرا مائدة الحواريّين تنزل من السماء . وسقط بسهولة كما تسقط أوراق التين في الخريف ، وبعدها استفاق من غيبوبته بصعوبة:

-أريد شايا بدون سكر يا سكر .

- حاضر يا لوز

لم يكن ورّاش يعرف قصّة " لوز وسكر " لكنّه قهقه حتى استدار كل الزبناء ، وهي ذاهبة ظل يرمقها بعينين زائغتين كقطّ برّي متوحش وهي تتراقص في

مشيتها رقصاً ،تضع ساقا وترفع الأخرى حتى انحسر ثوبها عن فخذها وبان البياض الحليبي المبستر، شعلة من الأنوثة المتدفّقة ، كانت ساقها عاجية ثابتة منحوتة وكأنها إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد ، كم استعذب هذا الوضع وما زاد من عذوبته رائحة عطرها التي تسبقها ونضج حلمة ثدييها قبل الأوان.

أحضرت الشاي وغادرت بسرعة ، وذهبت لزبون آخر تتمايل أمامه وتتراقص، مقدمة له شايا وسجائر رخيصة أخالها من " الكونطربوند" و بوگنين ينهرها أمام الملأ :

والماء ؟ هل تريدين من الزبائن أن يذهبو لبئر العرضوض لكي يشربواْ.

في حين طلب الزبون الولّاعة لإشعال سيجارته ، مدّتها له قائلة :

<شعل ، الصدر لّي مايجيب ميدالية ، سرّ بوه الدخان>.

هكذا إذا :الغصن الذي حلم أن يكون نايا ، صنعوا منه عود ثقاب:

هذا النوع من الفتيات أضحى بمثابة "بيتكوين" لرفع أسهم المقاهي وجلب الزبناء ليس إلّا ، في مجتمع وضيع همه الوحيد ملؤ الجيوب لا غير.

كانت الرياح شديدة والجو ينذر برعد وبرق بدت فيه "مولاي بوعزة" سقيمة وشاحبة تئن من هول نوائب تترى ، أزقة ككرنفال من الحفر ،كلاب سائحة وحمير تتمرغ في التراب ،شباب عاطل عن العمل يبحثون عن الأمل ،

والحزن يرتدّ على وجوههم مثل كرة المطّاط القاسية، يطفئون جام غضبهم في تقبيل السجائر بعد أن يفركوا مقدّمتها فركاً ،بقسوة يحتسونها بجنون وشغف ، صانعين منها لفائف ودوائر فوق رؤوسهم،وينظرون إليها باستمتاع وهي تقبّل السطح ؛ فلولا السجائر هنا لاشتعلت القرية بالحرائق، اللهم فلتشتعل في صدورهم، وليس في قرية نائمة كعازبة تناوب عليها اللصوص ليل نهار لفض بكرتها ومازالت تقاوم. لا أثر فيها لدرّة حياة ، دكاكين مغلقة وشوارع تصفّر فيها الرياح ويتجول الفقر على عتبات بيوتها.

آوى إلى ركنه غير آبه لا بالرياح ولا بالكلاب والحمير كمن يقفز خارج حدود الكون متأملا وجوه المارّة في هدوء تام، يبدو النفاق جوا مخيما على العلاقات ، وتبدو الكآبة مناخا يسود على القرية التي شُيِّدت عبر التاريخ من أحزان النّاس واضطهادهم،ولم ير بُدّا من احتساء الشاي واحتساء فنّ اللامبلاة كي لا يُمرِّض نفسه أكثر ، كان يقدس الشاي إذ يمنح له جزءا من الأنس وطعم الرغبة في الحياة ، ويرى في لونه المخادع لون النبيذ المعتّق، عكس القهوة سليلة العزلة ولونها كالظلام، احتسى كأسه بعين واحتسى النادلة بعين أخرى ، ومن دون أن يشعر-شعربلسانه يلاعب شفتيه في حركة مراهقة متأخرة- وكأنه كان يمتشق ركبتيها وهو يفرك كفّيه ويدخلهما معا بين فخذيه ، لم يكن الزير وراش يريد لذلك الكأس أن ينتهي لكنه لم يجد لغة

أخرى يحدثها بها ، اكتفى بالنظر وماوراء النظر فاغرا فاه حتى ارتعش شاربه المشذب ، وقرّرأن يركب أرجوحة زيغه فوضع لها رقم هاتفه مدسسا إياه مع ثمن البراد ، تمكن من تسليمه إياها ظنا منه أن أحدا لم يلحظه ،مستفيدا من تجارب سابقة. لكنّ ليس كل مرّة تسلم الجرّة ،سمع صوتا قادما من الوراء:

- <إنت معلم وحنا منك نتعلم > علقت الصنّارة يا الحاج ورّاش.

تسمّر في مكانه ، استدار بعنف، عنفٌ غاضب دارى به خجلا وفزعا لم يستطع إخفاءه وتمتم متنهدا:

< بقا لجدّك غا الغنا ، ينعل جد حمار بوك يا سعد المجرد، سعد المزوّر >.

وضرب كفا بكفٍّ وحدج مَن في الكراسي بنظرة سوداء ،وغادر منتظرا المكالمة الموعودة.

8

*****قربان الهويّة*****

ڤالدي لم يخرج اليوم من بيته اختار الاستلقاء بين ركبتي بوحة مستسلما لها وهي تفلي رأسه تارة ،وتنسج خيوط لغة مهدهدة حضارة غابرة في مهدها ، وتغزل الصوف أنساجا مدندة بلحن عتيق تارة أخرى، بوحة بحرٌ ميناؤه مليء بالتاريخ والمجد وحروب التحرير ، أسوار قلاعها عالية ،كلما جالسها وجلس قبالة خليجيْ حواجبها أحس بها امرأة بحجم الوطن ،كان الحوار حول الوشم، المسكينة لطالما حاولت جاهدة محو ذلك الوشم الذي يربطها بالعالم القديم ، كانت تقول أنه الشيء الوحيد الذي ندمت عليه.

- **استعملت كل الوسائل التقليدية لمحو أثره حتى كدت أثقب جلدي**
- **دون جدوى.**

بدأت في لعن التقاليد التي جعلتها ذات وقت ترسم أشكالا متعددة في مناطق مختلفة من جسمها ، مدركة أنه مجرّد رغوة لماضٍ تبخّر مادام جبينها مأسور في سجن تقاليد قرّبتهما قربانا للهوية .

سألها ڤالدي عن أبعاد الوشم الموشوم على الجبين والذي كان على شكل خطوط متعامدة تتوسطهم سبع نقط ونخلة باسقة على جبينها، وكل تلك الوشوم التي ارتبطت في ذاكرة الكثير من الأمازيغ بالحكمة والجمال والحنان

والأهازيج الدافئة.

- إنها ليست مجرد رسومٍ عادية، بل ذاكرة تاريخٍ كامل وثقافة متفرّدة امتدّت لقرون وقرون، يا بني .

-الخط الأفقي أول ما يوشم على سن الرابعة عشر ويرمز للعزوبة وبعد أن تزوجت جدك "محمد اومولود" وضعت الخطوط العمودية ، أما النقط السبع فهم أولادي وبناتي ، آه لم يبق منهم سوى وراش وعمتك الكبيرة أما الباقي فلي منهم السخط إلى يوم يبعثون، أما وشم اليد فهو رمز تيفيناغ رمز هويتنا وثقافتنا الامازيغية أرضنا وماؤنا ولغتنا . وتلك النخلة والله لا أعرف مالذي جاء بها هناك .

-ها < أمّاكيس أ حينّانو> ، قبَّل رجليها ويديها ونهض منتظرا دعوة خاصة منها كانت تكررها على مسمعه دوما قبل ٱنصرافه واسترسلت بلغة أمازيغية :

- < دّو أكينّاج ربّي> إذهب فليلقاك الله في طريقك،دعوة لخّصت كل ما يحمله من عبء على عرش كاهله ، وكرّرعلى مسامعها

-آمين آمين آمين .

9

*****القميص اللّعين*****

غادر في جو من الحبور والرّاحة النفسية وفي طريقه للبهو حاول عدم الإصطدام بغرفة جلنار التي كان بابها رُبع مفتوح وتلصّص عليها من ثقوب الباب كنقار خشب أصابته رعشة ظل ، رمقها جالسة أمام مرآتها، تلفّ جسمها بمنشفة وردية وتغطي شعرها بمنشفة أخرى أصغر من الأولى من نفس اللون والنوع ، مكث لأول مرّة يرمقها من طرف خفي وهي تتحسس جسدها، دهنت فوق منبت صدرها مرهما تفوح منه رائحة الكراميل ، أغرم بجسمها،بياض طافح بالغواية وخصر محزوم كأنه رقم ثمانية "8" ، نزعت عن شعرها المبلل قليلا المنشفة فبدت خصلاته سوداء تتخلله خيوط ذهبية كستار بكّة أيام المعلقات السبع، حملت أحمر الشفاه وطلاء الأظافر ونحّتهما بأصبعها جانبا، عرفت أنه أكثر شيء يكرهه ڤالدي. لا تدري من أي واد ٱصطادت صنّارته هذا الكره، كان ذات يوم وبّخها بشدّة قائلا أنهما يصلحان فقط لبائعات الهوى.

وضعت قُبالتها أدوات الزينة التقليدية التي أخرجتها من علبة منحوتة من خشب العرعار ، ووضعت على عينيها كحل طبيعي بحنُوٍّ وحرص راسمة حدود غوايتها ، جامعة شعرها في ضفيرة طويلة مليئة كالغصن الريان ،وقليل

من السواك على شفتيها وعطر بربريٌّ تحت عظم ترقوتها ومعصم يديها ، أما يداها تشبه جنة تتورق الحنّاء فوق أديمها كداليات عنب ونخيل متشابه وغير متشابه . ببساطة هي امرأة لم تتلوث بأدران الحضارة المزعومة ،ولا بمساحيق بنات المدن الزائفة ، هي امرأة بلدية طبيعية ... وآستلقت على بطنها في سريرها متلاعبة برجليها،لم يستطع الصبر ودخل دونما استئذان. أربكها هجومه المباغت فتربّعت القرفصاء كما أنّها في طقس يوغا، وفي الزاوية التقا الجمعان. وابتلعت ريقها بصعوبة :-هـ.هـ.هل تريد شيئا؟

كغباء بدوي يزور مدينة الدار البيضاء لأول مرة قال :-لا-لا أريد شيئا.

-إذا لماذا جئت ؟

تعرّق في قميصه الرمادي بالأكمام حتى آتّسعت تحت إبطيه رقعتين مبلّلتين تغيّر لونهما عن لون القميص اللّعين ، لم يكن التوتر أمامها من دَيَدنه ، وحرص على ألّا ترتعش حروفه وقال بصلابته المعهودة مباغتا إياها.

-أوليس من حقي الدخول ؟ دخلت فقط لأسأل عن حالك لكن إن لم يرقك دخولي سأخرج.

بدت كلماته مبعثرة لأول مرة أمامها، كلمات دون اتساق ولا آنسجام ولا منطق كلمات تطغى عليه ولا يطغى عليها ، تخرج من فمه دون تفكير، ودون قصد.

هل من الممكن أن يقع في شراك حبها؟ أم أن سطوة الجسد فعلت فعلتها .

بلعت صوتها الخافت بلعاً، حتى خُيِّل له أنّها لن تنطق بعدها أبدا :

-مرحبا بك المكان مكانك والزمان زمانك، والغرفة غرفتك ، وكل شيء هو لك ،وأنا أسعد فتاة في الكون إن شرّفتني بحضورك.

-شكرا لك ، إذا لِم أو لمن تتزيينين ولشعرك تسرّحين، وتضعين الكُحل في العينين ؟ لا أخفيك سرّا أنت فاتنة اليوم .

هامت مثل منطاد صغير في سماء الحيرة والارتباك والخجل، ووضعت سبّابتها على أنفه وقالت :-شكرا يا شاطر ، أخجلتني يا ابن خالتي ، وأنت أيضا تبدو مهذّبا اليوم على غير عادتك ، وأنا أتزيّن لنفسي فقط.

ذُهل بذلك الاتِّساق والانسجام الغريب غير المألوف بين الوجه الأبيض ذي العينين العسليتين وبين ' الصدر الأعظم ' الحامل لإجّاصتين يانعتيين تستحوذان على النظر، تُرى أين اختفت تجاعيدها اليوم ؟ فار تنّور شهوته ثم تذكّر كيف استوت سفينته على ميناء السلامة هروبا من أمواج زكية العاتية ، هل تستطيع سفينته الرسوّ بأمان هاته المرة ؟ أم أنّها ستداهمه كما يداهم الإعصار نبتة خاملة ؟.

هو يريدها الآن في الحرام وهي تريده الأمس والآن وغدا في الحلال وهل يستويان مثلا ؟

مُكرّرا إسمها كتعويذة مقدّسة وبلهجة واضحة وحادّة مثل حدّ السكّين :

- جلناار جلناار أريدك لي. خلاص افتح يا سمسم.

كان شبق شهوته من يتحدث لا هو، فهي لم تتعوّذ منه هذا الكلام.

أحسّت به يتصبّب عرقا باردا كسمّ لا ترياق له مدركة أنّه تاه في ثنايا جسدها البضّ، وتحمّس لزينتها الطبيعية وباغتته بفكرة الزواج .

كان وقع الكلمة حادّا أخرجه من حلمه، وجعل من حلمها واقعا يتلاشى كحلوى غزل البنات ،واقعٌ تغيّرت معه نبرة الحوار.

التعويذة لم تف بالغرض ناداها ب "ابنة خالتي" طالبا من أن تسمع وتعي جيّدا كلامه بعد أن أطفأت اشتعال صخرته الملتهبة ممرّغة إياها في سيبيريا الزواج.

-لا أستطيع يا سيدتي أن أكون عاشقا لك بحجم الشوق المعبّأ في صدرك، ولن أكون لك عازف كمان يراقص مواساتك ، لاأستطيع أن أكون صهريجا يجمع دموع أحزانك المدفونة في بحّة صوتك ، عذرا يا زهرة الرُّمّان فلن أكون البطل المنتظر.

مآزداد الصدّ إلا وآتسعت هوّة الأمل والتعلّق .

-لاعليك ،المهم أن أنتظر وأفرّخ على بيض الأمل، سأتبعك حافية القدمين ولو إلى التهلكة ولكن،الحلال يا ابن الحلال.

سكنها كعفريت لم يخرج رغم تعازيم الصدّ والمنع،رغم توصيات العارفين ورقى الشيوخ.

صفّق الباب وراءه تاركا إياها في زنزانة مسجونة الأحاسيس تصطلي بنار الحب كنورس نافق على الشاطئ يحمله الماء ويعيده بلا حياة،وعاد الفرح يلبس جبّة اليأس المقيت ، كم تمنّت أن يعشقها هي ، لا أن يعشق جسمها ، وهمهمت بكلمات لا تسمعها إلّا هي:

-ستندم يا ڤالدي فالأجساد تترهّل وتتحلّل ثم تذوب في الرّحام .

-<هاء، أيّاايايا> قالتليك الزواج : أي زواج تتحدّث عنه هذه ، قالها والزبد يتطاير من فمه ساخطاً ، أين العمل ، أين الوظيفة، أين و أين ، الزواج قرار خاطئ بل حتى الوعد بالزواج تورّط لا مخرج منه قبل أن يتلاشى في غابة الضياع ، لا أعرف مابال هذه الفتاة تنتظرني على أحرّ من الجمر ، تنتظر في رجل آيل للتشظي ، في رجل نرجسي منهك ومغرور وسادي...

ندم على تضييع فرصة زكية ، ڤالدي هذا رغم تديّنه وحفظه للقرآن وعدم تضييعه للفجر يخرّ ساجدا لشيطان الشهوة تماما كبرسيسا العابد ، هل سيلوم ورّاش بعد اليوم ؟ من الممكن أن يكون ورث منه هذا الزيـغ والجري وراء الأرداف ، كما ورث منه الحنان وبرّ الوالدين ، ورث أيضا شيئا من الصرامة وتقلّب المزاج ، شبل من ذاك الأسد ، ورّاش الذي يلاعب أطفال

الحيّ ويشتري لهم الحلوى ، ويطعم قطّة الجيران العوراء، سيجد له ألف عذر بعد اليوم سيعيد النظر في عربذته وصعلتكه وانصياعه لسلطة الشهوة ، لكن يبقى السؤال الذي يحيّره هو:ماذا وجد في نعيمة بغلة القبور ولم يجده في أمه فاطمة ؟ التي تحمل كل مواصفات الجمال والأخلاق والثقافة، تُرى لم يجري بعض الرجال وراء شيخات ومومیسات أكل الدّهر عليهن وشرب ؟ هل لقضية الفونتازم يد خفية في هذا وذاك ؟ .

10

وساء أولئك رفيقا

خطفه جرس الهاتف من نوم وسبات عميق استفاق معه على نغمة صوت جديد في حياته : -ألو من معي ؟

- معك سكر يا لوز.

لدهشته بقي صامتا للحظات .

- أهلا وسهلا، <نهار غليظ هذا> عاش من سمع صوتك.

- لي الشرف سيدي.

- سكر أنتِ تشبهين القمر.

- أحقّاً أشبهك يا لوز.

ماشاء الله صوت وصورة ، أحبّ صوتها واستعذبه وضرب لها موعدا بعد آذان العشاء حيث يكون الكل في المسجد ، بالقرب من شجرة الصفصاف المتكئة بغصونها على المقهى .

انتظرا الظلام ليبتلعهما من أعين الرقابة ، وأمسك بمرفقها الأيسر جارّا إياها إلى بيت يكتريه خفية ، كان القمر يستتر خلف الغيمات يرتجف خوفا مما سيقع،رتّب كل شيء ثلاث قنينات خمر والرابعة لمشروب 'والماس' بجانبهم صحن 'قطعة' من بصل وطماطم مقطعين أطرافا صغيرة ، بعض الفواكه

الجافة من أكاجو ولوز وفستق في صحين آخر ، في حين يده اليمنى تحمل موزا وتفاحا .وضع الكيس على المائدة الخشبية واتّجه ليشغِّل الموسيقى ، كل الأسى القابع في مضغته الملون بالدجى يزيده دماسة صوت الموسيقى، صوت "ميمون الوجدي" المبحوح الحزين وهو يلعن الدنيا في أغنية حرّكت مشاعره :

ندعيك لربّي ولاّ للشرع يا الايام يا الكاوية قلبي...

درت فيك النية محسبت نتخدع يا الايام يا سالبة عقلي..

هاالايام هالايام مالك مالك هاكدا ياالايياام ...

ركبت صهوة التحرر واضعة ساقا على أختها مائلة برأسها حتى انسدل الشعر الحريري على الفراغ ولامست خصلاته الرقيقة بعضا من أنامله ، وهمست في أذنه اليسرى:

-لنفعلها أنا نادلتك الليلة وحدك وخادمة أعتابك الليلة . عذبني كيفما تشاء .

كانت تبدو بتجربتها وطريقة تعبيرها أكبر من عمرها،تعرف مكامن الجسد ونقطه الحسّاسة كفراشة مزهوة بفيض ربيعها الباذخ الذي تفتت من كثرة الأيادي التي لوته دون شفقة ، في البداية كان مجرد اكتشاف للذة المسروقة المحرّمة ، لتذوق حلاوة الدرهم المرّ ،ولتصير محاولة عيش بعدها ، وليزيد ورّاش حبّة العلقم إلى السمّ الذي تجرعته، في حين بدا هو كتلميذ يلج

المدرسة أوّل مرّة .

أمضى ليله يشرب من نبع الحب على ضوء مصباح شاحب ، وموسيقى ميمون تجمعه وتشتته كيفما تشاء،وهو الذي دخل في عالم خاص من النساء ،عاشر البيضاء والسمراء ، البدينة والنحيفة والمعتدلة والرشيقة ، واسعة العينين وقصيرة الأنف ، النافرة الصدر والمكتنزة والسمينة المضحكة والعبوس القمطرير ، المطلّقة وزوجة الرجل ، المازوشية وساء أولئك رفيقا ، لكن هذه المرة كانت مختلفة ، إذ جمع جوعه وعطشه ، إيمانه وكفره وسعادته وقلقه وأهوال عمره ورمى الكل في سلّتها داخلا بحرها اللُّجي غير آبه لا بالغرق ولا بالبلل ، وهي الأخرى أحسنت الركمجة على جراح عبابه.

استيقظا قبل الفجر دسّ بعض النقود في حقيبتها وهي تراقبه برُبع عين ،يعرف أنّه تصرّف أرعن لكنه اعتبره واجبا ، فهي لم تعطي كل شيء سوى لتأخذ ما تواجه به تقلّبات الحياة، وخرجا قبل انتصار النهار على الليل ومضى كل في دربه كأنهما غريبين على بعضهما البعض .

11

مقصلة الموت

غرف المنزل كلها مضيئة ، جلنار وزكية في عناق حار أمام عتبة الباب، ڤالدي يدور كخذروف حول نفسه ، ويداه وراء ظهره، حكيمة عادت من السفر دون علمه ، وحسناء جالسة تلعب بالدمى وسعيد يلفّ رأسه بمنديل أبيض من نوع ' حياتي' بعينين منتفختين ، لم ير فاطمة أمام الباب ، انتابه ذعر شديد خصوصا بعد إيقاف وضع الطيران من هاتفه لتنهال عليه رسائل العلبة الصوتية ، مئات المكالمات العالقة في الصندوق ، ثم خارت قواه وأطلق العنان لدموع هامية ، وخرجت فاطمة عانقته وازدادت حدّة البكاء ، حينها قالت بصوت صبور *{إنا لله وإنا إليه راجعون}* ، المسكينة قبل نطقها للشهادة ظلّت تكرر اسمك على مسامعنا _وراش حبيبي،ورّاش ابني رضي الله عنه وأرضاه ...قبل أن يذوب كلامها كفصٍّ ملح في ماء دافئ.

فعلا الناس نيام فإذا ماتواْ انتبهواْ ._ وأكثرنا يعمل لدنياه كأنه يحيا ويموت ومايهلكه إلّا الدّهر.

التصق بحضن فاطمة طالبا الصفح منها ومن المرحومة بوحة ، بدت فاطمة كقشة يتمسك بها الغريق ليبقى في عداد الأحياء ، وسجنت الدمعة في مقلتيها وأرجعتها بسرعة كما يرجع البدويّ أغنامه إلى الحظيرة، وأخذت بيده

اليمنى ودخلا غرفة الفقيدة ، دخل الموت في الحياة والحياة في الموت حتى اختلط الأمر على أيهما أحق بالمكان .

لا حروف ولا دموع بقيت له كي يهشّ بها على ضياعه، فحينما تنزل مقصلة الموت لن تجد الرقبة المهيّأة وقتا للإعتذار، مرّغ جسده على الحصير ، كان في تلك اللحظة مثل صوفيٍّ قديس في أصفى ساعات الصلاة والانكسار. لطالما استعنّا بقولة "آخرها موت" للتهرب من مشاكل الحياة ، لكن لا أحد يصبر على الفقد؛ والآن تبدو فكرة "درويش" أن كل الذين ماتوا نجوا من الحياة بأعجوبة خاطئة ولو إلى حين ، فنحن نحب الحياة إذا ماآستطعنا إليها سبيلا، فلا صوت يعلو فوق صوت الموت، لا أحد كان قادرا على كسر قيد الحزن ، الكل عاجز أكثر من أي وقت مضى ، كانت بوحة بمثابة جذور شجرة العائلة كل المتخاصمين يتصالحون أمام حضرتها ،والمذنبون يلجؤون لمحكمة اسئنافها، بدأت الأمنيات تتبدد كسراب خادع ، والغيوم قد لبّدت السماء الصافية وحالت دون رؤية النجوم ، لا أحد منهم استطاع أن يفلت من قبضة الذاكرة وسفافيد التفكيرالتي تكوي الكبد كيّا بلا شفقة ، والحقيقة تكمن في الضعف فلا أحد منهم ولا منّا يستطيع حبس عقله أن ينخرم ، أوجسده أن ينهار ، ولن يستطيع أحد أن يتحكم في المقادير كي يمنع حادثة أو يتنبأ بعطب ما أو يؤجل شيئا ما.

12

إسطبل الحياد

ما معنى الحياة ؟ وماهي الحياة أصلا؟ فعلا ماذا تكون هذه الزانية الزّائلة؟ لو فكّرنا قليلا..قليلا فقط بهذا الأمر لوجدناها لا تساوي جناح بعوضة فما فوقها ، ولو فكّرنا طويلا لأصابنا الجنون ، سلسلة مكشوفة للعيان هي الحياة ، نولد ، نشقى بطفولتنا ونحن نتلقى الضربات والصفعات على مؤخراتنا، نكبرونبحث عن أمل وعمل ، نتزوج ، ننجب أو لا ننجب ، شقاء آخر إلى أن نعود للتراب، وحتى الذكريات إن كانت حزينة تحزننا ، وإن كانت مفرحة نحزن على مرورها .حزن في حزن هي الحياة

أزاح الموت عنه لحاف النوم وتركه غارقا في صحوته مسترخيا في العتمة مستمعا لمحاضرات "المغامسي" مسترجعا مسارات أخطائه وغِلظة قلبه مع جلنار رابطا ذلك برغبة بوحة في رؤية أحفادهما منهما، ماذ الو باغته الموت هو الآخر أو باغتها ؟ جلنار الآن أضحت وأمست وصية بوحة له ، وصية لا بدّ من تلاوتها آية آية ، عليه أن يصونها ويحقق رغبة الفقيدة، ازدادت حدة الأرق ، كلّما راودته هاته الحالة إما أن يستلقي فوق الأريكة الحمراء المركونة في السطح ، أويتّجه لصخرة ' ديور جداد' ، هذه المرّة اختار منفى الكتابة ثم أخرج قلما أسودا ومذكرة عليها شعار تابع لجريدة ما وشرع في الكتابة .

((لن ينقذني من هذا التيه سوى الكتابة ، أفرّ إليها فرار الرضيع إلى حضن أمّه من الغرباء ، أسافرمعها سفر نحلة إلى زهرة في السهوب البعيدة لأجل عناق خاطف، قلمي أعرفه يكتب وينطلق لوحده دون ضرب بالسّوط ،ربّما يعرفني هو كذلك أكثر منّي ،يعبِّر أفضل منِّي ،ويجمع شتاتي وأجزائيَ المبعثرة، وينتصر على ضياعي)) قلّب صفحات المذكرة ليصادف تعليقا كان قد آقتبسه من " جون بول سارتر" مكتوب بخط واضح " حتى في علاقة جسدية محض يمكن أن يوجد حب عميق" ، لعن الفكرة وصاحبها ومُقتبِسها وطوى الصفحة ثم عاد ليكتب : ((لماذا يهرب فرسي لهذه المواضيع دوما ، من يروِّض الآخر ، من منّا السيّد ومن العبد ، دع الجسد والشبقية ، دع جلنار واهرب بخيلك ورجلك وعرّي الواقع المعاش ، على الأقل الواقع المحلّي ، واجعل القرية المنسية عالما مصغّرا ولك من الإسقاطات ما تشاء ، تحدّث عن خروقات المجلس الجماعي، وعن هيمنة حزب السنبلة اليابسة على الواقع السياسي، عن سيّارة الإسعاف التي حُرقت أمام المستشفى، عن طمس وضمس ملف دفن طفل بملابسه في الروضة المنسية ، عن سيارة المجلس الجماعي وكيف يسخّرها الرئيس لنقل زوجاته الثلاث إلى الحمام، وعن ظاهرة استفحلت في القرية مؤخرا ' عيالات الرجالة" ، وعن سرقة أموال الشباب باسم القانون، وعن ملعب ديور جداد العامر بالحجارة ، عن وعن وألف عن عن...

- -دعني يا قلمي صامتا ، ونم يا فرسي في إصطبل الحياد فلن تستطيع
- هذه الورقة المسكينة حمل هذا الثقل ، ثقلٌ يجعل أحلام الصِّبا مجرّد سراب خادع يتبعه أرق مضني، دعني أعرّي الأجسام ، أمّا سدّ السياسة فلن تظهره ولن تستطيع له نقبا)).

13

والآن آن لي أن لا أئن

أغلق المذكرة وأعادها للرّفوف واضعا إياها بين "ثلاثية نجيب محفوظ " وبين " في ديسمبر تنتهي كل الأحلام لأثير عبد الله النشمي" وضعها بين ماض جميل ، وحاضر معاصر غامض ونادى على زكية. مرّت مدّة ليست بالهيّنة لم يتحدّثا مذ أن تسلّلت للسطح كنبتة اللبلاب ، أطلّت من الباب حافية القدمين، ماكياج خفيف يحمل بصمة صيف حارق، صدر صغير لا يُخفي توثّبه يحمل رمانتين أينعتا وحان قطافهما،كتفان عاريتان ، زادا من تجلي عظم الترقوة ، ووجه صغير مقبول الجمال ، أزاحت عن إحدى أذنيها طرف السماعة ولبّت النداء.

-نعم أخي كيف الحال ؟

دائما ماكان جوابه على هذا السؤال ب:

-الحال منصوب والنعت تابع لمنعوته..تفضّلي أريد التحدث معك قليلا.

باحترافية صعّرت خدّها وأجابت في تؤدة ورزانة :

- على الرحب والسعة ، ولكن حبذا لو تفضلت أنت لتشاركنا الحوار أنا
- وجلنار في غرفتنا.
- أوكي...

استقبلته جلنار استقبالا عاديا ، مدّ لها يده فصافحته بعد تردّد ،ودون أن يندّ

عن وجهها أي تعبير إنساني،لكن سرعان ما هزّت رأسها هزّة المتسامح، وابتسمت كي لا تظهر لزكية خصامهما،هناك همس في أذنها.

- اعذريني لم أتملك نفسي وأفرغت عليك جام شحنة غضبي.

كمن يدخل بين اللحم والظفر قالت الأخرى :

-أشركوني معكما في الحوار.

-الحقيقة أننا كنّا في خصام بسيط ولهذا ناديتك كي تدخلي بيننا بخيط أبيض ، لكن الظاهر أن أختك تملك قلبا صافيا لا يحتاج لتدخل.

-سامحك الله يا ڤالدي ، اسمعني سأعلنها أمام أختي كي تكون شاهدة على كلامي، كريم أنا أحبك في الله وسأنتظرك انتظار زليخة ليوزارسيف .

تذكرت زكية كيف ارتمت عليه وكيف صدّها عن ذلك وتيقنت أن حب أختها أطهر من رغبتها ، وأن بين الطُّهر والدنس برزخ لا يبغيان.

هرب من الحوار كما يهرب السائق في بلادنا عن الحفر .

-غذا إن شاء الله سأسافر لمكناس للتسجيل في الجامعة وقد آخترت شعبة الدراسات العربية ، كان حلمي الالتحاق بالصحافة ، لكن كما تعلمان لا طاقة لنا اليوم بالرباط وجنوده، حتى مكناس إن لم أستطع المواكبة سأدرس عن بعد ،أو أبحث عن مكان لي في العسكرية أو الأمن الوطني رغم قصر قامتي.

لطالما حثّته جلنار عن تتمة دراسته والصبر رغم الفقر فهناك منح جامعية ،

المهم أن لا يُطَوِّق خصره ب'السمطة' بينما ورّاش يدفعه ويشجعه للخوض في غمار المخزن ، أما فاطمة فاختارت الحياد .وقالت جلنار:

- الآن آن لك أن تمارس أكثر الأفعال نضجا : التأمل، نعم يا سيدي لك أن تتأمل وتسمع لنبضك فما أصعب تيمة 'الاختيار' ولك مني هذه الجملة إحفظها جيدا ، سأنتظراليوم الذي ستعود لي فيه وتقول لي : *والآن آن لي أن لا أئن* ، ولكن قبل هذا ، هيء نفسك للأنين في دروب الحياة مهما كان الاختيار، لابد من المصاعب فالأمواج العاتية هي من تصنع الربّان البارع.

-أنت على حق إذا فليكن شعارنا أن ننتظر جملتك وأن نتهيأ للأنين ..

- حتما سأعود ولن يرحل النهار ، لن أكون " بدر شاكر السياب" الذي : انطفأت ذبالته على أفق توهج دون ..... وآسرته آلهة البحار في قلعة سوداء في جزر من الدم والمحار .

فقط عليك انتظار عودة السندباد من السفار ياجلنار . فالأسطورة علمتنا أن " عوليس "يذهب ويعود.

تأكد من وجود وثائق التسجيل في المحفظة وسط الملف الأزرق ، نسخ الازدياد ،ونسخ البطاقة الوطنية مصادق عليها ، فسبع نسخ من الباكالوريا بالإضافة إلى النسخة الأصلية، صورتان شممسيتان بدا فيهما ككتكوت أصفر ، وطوى الملف للمرة الثلاثين وأحكم إغلاق المحفظة .

عاود الاتصال بصديقه نبيل واتفقا على اللقاء ب "البومبا" مع الخامسة والنصف صباحا، كان نبيل ملما بالسفريات، خاصة وأنه كان يزور الأخ في سجن التولال بمكناس .

14

شتان بين الثرى والثريا

في السادسة والربع تنطلق الحافلة ، قالها الجابي ثم أضاف أن ثمن الرحلة قد ارتفع بعشر دراهم بسبب انتهاء العطلة الصيفية .

-لا عليك سأهتم لأمره فهو صديق أخي " الحبّاس" ومثل هذا النوع تنفع معهم الجبهة فقط.

اقترب منه، مدّ له مائة درهم وقال :

- <قطع جوج وراق بلا زيادة بلا نقصان>

ذلك مافعله وبالثمن الأصلي وربت على كتفه ، وناشده بالتفضل.

لغط الناس من حولهما في الحافلة ، غارقون يتمسّكون بحبال الحياة الهاربة، طلبة وطالبات يرسمون أوّل خطوط التغيير ، ركبا الحافلة وآختار هو مقعد بجانب النافذة، وسمع مساعد السائق ينهر راكبا لإطفاء السيجارة ، أطفال صغار يبكون.انطلقت الحافلة المهترئة تجرّ أذيال المسافات بتوقفات متكررة،وكوابحَ على حين غرّة تضطرب معها أمعاؤه وتشتدّ ، ورائحة البنزين تزكم الأنوف ، استند إلى ركبتيه ، ووضع سماعتيه في الأذن وشغّل أغنية كانت قد قد شغلت الشباب آنذاك :

سيد القبطان أيا رواح نهدو

يا هدتني المحان دينا بعيد نصدو

أرض الله راهي واسعة

حاولت نهجر بعيد

لا تلومني حياتي ضايعة

تبانلي نورمال نزيد

مستسلما لمآل الرحلة ولكلمات الأغنية الضاربة في واقعه البئيس والمشجعة على الهجرة. والتي ارتفع لحنها بقوة حارقة مضطربة .حتى انتهت ..تنتهي الأغنيات ولا تنتهي المعاناة.

أيقظه من استسلامه صوت "الگريسون"

- **<أرى صحاب لافاك.>**

عانق محفظته بقوة وكأنّها ألواح موسى عليه السلام وقام من مقعده، بينما كان نبيل قد سبقه إلى الخارج.

السحب في سماء مكناس محتشدة تتدافش فيما بينها صانعة سقفا للمدينة وغيوم تلبّد الجو دون أن تمطر،جوّ كئيب نزل من الحافلة متأبِّطاً أوراقه فلفحه تيّار بارد، قطعا الطريق بصعوبة إذ تصادفا مع حلقيات بعض الطلبة مطوقين ب الكلاب البوليسية و"السيمي" ، حلقيات مختلطة بضجيج السيارات، بينما في الجهة الأخرى تراءت له جماعة من الشباب

يحملون شعار الإلتراس مرددين شعارات من الكالشيو الإيطالي :

- **< الريد مان جات من كل حومة**

جامي تشوفو الهنا

هادي ماشي روماا

هادا غير بّا مكناا >

تجمع خاص بفريق النادي المكناسي لكرة القدم، المهم أنّه تيقّن أن المدينة تغلي على صفيح ساخن. ضاربة رتابة حياة قريته البئيسة عرض الحائط. دخل الحرم الجامعي تسبقه رياح الهيبة بهندام أنيق فرغم كل شيء كان ڤالدي حريص دوما على أناقته التي ورثها من ورّاش ، وتوجّه لشبابيك الدراسات العربية ، بينما توجّه نبيل نحو الأدب الإنجليزي، انتظر دوره في صف طويل مختلط وبدأ يحملق في أسوار الجامعة الباسقة ، أسوارٌ من عهد "مولاي اسماعيل" مزركشة وسميكة تطوف بالجامعة ، رأى أيضا أسماء بعض الأجنحة والقاعات والمدرجات، فهذا جناح السكاكي ، وهذاجناح ابن زيدون ، وهنا قاعة الخنساء وهناك قاعة السيوطي ، فمدرج ابن خلدون ومدرج ابن المقفع...وصل دوره وقدّم الأوراق للمشرفة التي تبدو أنها حانقة ومازاد من حنقها الطالب الذي سبقه يبدو أنّه ناداها ب 'خالتي' فبدأت تلعن وتسبّ ناظرة للمرآة للمرة المائة، لكن ڤالدي كان يتقن لغة التبريد وكأن

لسانه مقص طبيب إنعاش :

-السلام عليكم سيدتي ، هلاّ أطلقت العنان لابتسامة فالحزن لا يليق بشابة مثلك.

كانت في عمر الأربعين تقريبا بعينين جاحظتين، وأنف كزناد مسدّس ووجه مكتنزه ومحمرٌّ من كثرة الدّهون والتّرهّلات، وسط قصة شعر رجالية قد دبّ المشيب في عارضيها دبّاً وأجابته :

-شابة ! شكرا على المستملحات لكن أظن أني أصبحت خالة الجميع هنا. وقد فاتني القطار.

-حاشا لله أنت الأجمل هنا والألطف، لاتعيري ذلك الأبله 'العروبي' القادم من وراء الشمس أدنى اهتمام.

أسرعت في الإجراءات وقدمت له وصل التسجيل وغادر بعد تبادل الشكر.

كان نبيل هو الآخر قد أنهى مهمة التسجيل وتوجها للحي الجامعي لوضع الملف هناك أيضا، وهما يهيمان بالخروج تجلّى لهما الفرق الشاسع بين الطلبة ، فهنا طلبة أنيقين بسيارات فارهة ، وهناك آخرون ترهق وجوههم قترة، شتان بين الثرى والثريا وهل يستوي السفح مع القمة، شتّان بين من فتح عينيه في حضن التّرف ، وبين من فتحهم على رصيف الفقر حاملا لوثة العوز في جيناته ، بين من وُلد ليعيش ومن وُلد ليبحث عن العيش ، حوار

ساخن دار بينهما حول الوجودية والفلسفة القدرية ، وعشوائية تقسيم الأقدار، نقاش كاد الإلحاد يكون طرفه الثالث لولا أن أسكتهما ضيق الوقت.

أسرعا الخطى ووضعا الملف في الحي الجامعي، واتجها عائدين للمحطة، وفي الطرريق انعطف نبيل يساراً ، لزيارة أخيه القابع في السجن عشر سنين دأبا في حين انتظر ڤالدي أمام نفس الحافلة المهترئة وهي تنفث دخانها الأسود، وقتل الوقت بإجراء مكالمة مع والدته والتي لا يخطو خطوة واحدة دون مباركتها له، مقدسا إياها كقسم أبو قراط، وأخبرها بإنهاء التسجيل وعن عودته في المساء.

بدا نبيل مطأطأ الرأس عاجزا أكثر من أي وقت مضى، دارت عيناه في رأسه من جرّاء احتدام الأسئلة، وكأنّه هو المكبّل المسجون تكاد النار تنبعث من جسمه من شدة الغضب ، بدا محمّر الوجه، ممتقع الخدّين ، ساد جو من الكآبة إذ لا صوت يعلو على الصمت والأنفاس المتقطعة ، وحاول ڤالدي إنعاش أمله المتوارى فهمس في أذنه.

-إن شاء الله سيخرج فالأزمة ما اشتدت إلاّ لتنفرج وتلا *{قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا }*

قال نبيل بصوت حزين كأنّه ينفي عن نفسه تهمة :

- قد أصابنا ماكتب الله لنا ، ومالنا من سبيل.

وبلهجة صاخبة أقرب إلى السخط قال ڤالدي :

- أتعرف أن بعض الذين ينامون الآن خلف القضبان، أفضل مليون ألف
- مرّة من القضاة أنفسهم الذين حاكموهم وحكموا عليهم؟

قالها وهو يعلم أنه يستحق السجن ، والروح التي قُتلت لن تسامحه ، ويعلم أيضا حجم المعاناة الكائن في صدر صديقه، وعانقه وسط كيمياء من العواطف البشرية، في محاولة للمواساة رغم كرهه لتأدية تلك الأدوار مبررا ذلك بكون لا أحد يمكن أن ينوب عن شخص في حزنه، والمواساة توافق اجتماعي ليس إلاّ ، وبلغة الأخرى < ماحاس بالمزود غير لّي مخبوط بيه > . ودون تخطيط مسبق رفع بطلنا عينيه ليشاهد امرأة مسنة انتحت مكانا قصيّا رافعة يدها اليمنى في انكسار باحثة عن ثمن التذكرة ، ويدها اليسرى تهدهد ابنتها التي تنهش الخبز نهشا بثياب متسخة ووجه كلوحة زيتية ، اقترب منها ومالت برأسها إلى الأمام حتى تحركت أثداؤها المرتخية كقطوف دانية تغازل الأرض، أخرج ورقة بنيّة من جيبه ولفّها حول سبابته بعناية قبل أن يضعها في يدها ، ليتسارع الدم إلى وجنتيها ونطّت الفرحة من وجهها، وتزاحم الكلام على لسانها.

- < الله يوصلها ليك للواليدين >.

آمين أ خالتي ، قالها وتذكر ذلك الطالب الذي خانه التعبير أمام الشباك،

وضحك حتى ضهر ضرسه المثقوب، ومآنفك عائدا إلى الحافلة حتى وجد نفسه محاطا بشرذمة من الناس أولهم نبيل ، وكل منهم وضع قطعا نقدية في يد السيدة ، وكأنه جلب لها الرزق والشفقة مما زاد من فرحتها، حتى بدى فمها الحافل ببقايا أسنان معوجة كمغارة حبلى بتجاعيد صخرية ، فيما بدت ابنتها كصعلوكة أهدتها السماء قصرا من عجب.

جلس مشدوها يرقبها وهي تدفع ثمن التذكرة للجابي منتظرة حافلتها، بينما حافلتنا انطلقت تجرّ عجلاتها الحصى، حافلة غاصّة بالرّكّاب ملثمون وملتاثون بغبار السفر، متمترسون خلف جلابيب غليظة رغم الحرارة المفرطة، وألحفة الصوف البنّي الخشن يغشى النساء ، ضجيج كثيف وعجوز عقيم أصرت على أن تحتفظ بدجاجتها التي ظلّت تقأقئ طيلة الطريق مساهمة بدورها في ضجيج الحافلة، بينما السائق البدين يُحكم قبضته على المِقود بعد أن خلع حذاءه :حذاءٌ غليظ وكأنّه لمخلوق منقرض ،ورأسه الشائب يهتزّ مثل بندول السّاعة. ومساعده ذو البدلة المتسخة الزرقاء يحكي نكتا لا أحد يستمع إليها ، ويكرّر عدّ الركاب للمرة الخامسة بعد العشرين.

وطريق العودة تتبدّى كأفعى مجلجلة،نصف يوم فقط كان كافيا ليتجلى الفرق بين الثرى والثريا وبين طريق الرحلة وطريق العودة،تمنى أن تطول الرحلة إلى ماوراء المحطّة،لكن هيهات هيهات فوراء الجبال تقترب قرية الحزن ، أرض

عاهرة ملعونة تبيح ترابها للآخرين، حتى وهي طامث مدماة ، لايردعها حيضها عن غواية من يقع في شراكها ، لكن عليه تقبّل العودة . متيمِّناً بالمثال الذي يقول:

إذا أجمع الناس على أنك أعمى ، فخذ العصا وتوكأ.

15

رقصة الشبّوط

دقت الساعة مؤذنة بالثامنة مساءا ، دخل غرفته متمهلا وبلا صوت ، فكّ ربطة العنق التي استعارها من ابن عمه مصطفى ، وارتمى على السرير ارتماءة من لا يحسن فن السباحة ، واستسلم للعياء ، دون أن يحس أحد بعودته ، بينما الأم والبنات في المطبخ ، محرابهم الحميم ، وفضاؤهم المقدس ، تعدّ له وجبته المفضلة .

تسرّبت إلى أنفه الرقيق رائحة مألوفة ، أسماك مشوية في الفرن جعلته يقصد المطبخ كالسائر في نومه ، رأته أمه فأفلتت من بين شفتيها تنهيدة دالّة على الارتياح ، كانت متعلّقة به لدرجة أنه لازال يظفر بثديها كالرضيع ، ويأزه أزا وكأنه "شوكوم "ثم تعانقا وطفقا يخصفان من قبلات الفرح.

اجتمع الجميع على المائدة الخشبية -ذات ثلاثة أرجل ونصف- في جو حميمي أسري تنقصه بوحة فقط.

وقال ڤالدي :-آتنا عشاءنا لقد لقيت من سفري هذا نصبا.

كان متلهّفا كأنّه لم يأكل من قبل قَطُّ ، يأكل من أجل استعادة القوة لمزيد من العناء ، عليه أن يستغل ما بقي من الوقت قبل هزّ الرّحال لبداية رحلة الطالب وتنهّد قائلا:-آه كم كبرنا بسرعة كحريق مهول.

وقبل الرحلة المنشوذة كان عليه اقتناء بعض الحاجيات ، وقبل ذلك عليه لملمة بعض الجراح وتصفية الخواطر.

عليه أن يطمئن على أمه من عربذة ورّاش والتي تبدو أنّها آضمحلّت بعد وفاة بوحة ، ورائحة فمه لم تعد تنزّ خمرا، وتباشير التوبة بدت في الظهور، لاسكران ولا هائج ولا مسطول ..

هل تصلح الموت ما أفسدته الحياة ؟ وهل ياترى يصلح العطّار ما أفسده الدّهر؟ .

لم يكن ڤالدي متفائلا كثيرا بهذا الشأن . يقال " توقع خيبة الأمل كي لا يخيب الأمل أكثر"، كما عليه إيجاد حل لجلنار وغرامتيها التي تشبه " روايات عبير" فبعد جملة تهيأ للأنين ، صار يبحث عن الرّوح التي تقطن بداخلها وبسببها كانت تمارس عليه ذلك السطو المميت ، وينهي بكائيتها المنفلوطية ، أمّا زكية فبهلوانيتها المستنغماتية يبدو أنها انتهت بعد معرفة مدى تعلّق أختها به .

"المرأة كورقة اليانصيب ...آلاف الأوراق تخسر، وواحدة من عشرة آلاف تربح، هي سبب الشقاء آلاف المرات، وسبب السعادة مرة واحدة " قرأ هذه الجملة ل "رفيق العلايلي"، وبدأت الأسئلة كجنّيات متمردات يفتكن رأسه المهدود.

- هل تكون جلنار ورقة حظي، أم سأغذو سجين كهف لا فكاك منه؟، إن فكرت بعقلي فجلنار هي دائي ودوائي ، وإن تركت شهوتي تقرر في مصيري فلا ريب أني سأصير مسجونا كمحنة الكلام بين القوسين .

جلنار هاته لا تشبه جلنار التي رآها وراء الربوة بالفستان الأبيض ، جلنار هذه أخذت زخرفها وآزينت بفعل عكوفها على التنحيف عكوف العبّاد والمتصوفة، حتى صارت نحيلة كالعرجون القديم،بريق يشع من عينيها كمنارة وحيدة داخل حلكة الوجود ،شعر كثٌّ يلامس أخمص قدميها منساب كليل الصحراء الطويل، وفي خدها حمرة غروب كزهر الرمان ، جِلِنّارٌ مبثوث في أطياف القرية تجعل غيرته تكاد تميّز من الغيظ.

آه كيف نمت هذه المخلوقة سريعا في مضغته كشجرة أطلقت غصونها وشراييها لتمتلك كيانه حتى صارت الهواء الذي يتنفسه، آه كيف سرقت قلبه كما سرق عمرو الواو من داوود مرّة لامته زكية وبالغت في اللوم قائلة :

- كيف كنت وكيف صرت وكأنك غدوت مسحورا.

ينظر هنا وهناك ، بحثا عن معنى يجنبه تكاليف التأويل.

- لا تلوميني فمن صنع هذا المخلوقة يستحق أن يُعبد ليل نهار وأنشد

- أبياتا "للبارودي":

فَيَا أَخَا الْعَذْلِ لا تَعْجَلْ بِلائِمَةٍ

عَلَيَّ فَالْحُبُّ سُلْطَانٌ لَهُ الغَلَبُ .

وزاد من إلهامه وتعبيره مناجيا وجدانه كأنّه شاعر ينتمي للرابطة القلمية:

يا جلادي أما آن وقت تضميد جراحي ***

ضمِّدها أو انثر عليها ملحا وزد في صياحي

سيافي رقبتي لك اعدمها أو أطلق سراحي***

حرّرني أو لا تحررني فقد رميت سلاحي .

الساعة تشير إلى الثانية بعد منتصف الليل ، بداية خريف جديد، الجو في حالة رعد وبرق وزخات مطر وبَرَد يخيّم على الدوّار ، وأغصان أشجار البلّوط تذروها الرياح.

تسلّل ڤالدي وشيطانه لغرفة جلنار حاملا مطرقة " نيتشه " : أنفكر حيث نوجد أم حيث لا نوجد ؟ في حالة وعي ولاوعي حضور وغياب عقلي ، مابين يقظة ونوم ، ككائن لا يعرف الغاية أو العلّة من الوجود ، تائها في ليل بهيم .

يقال: الليل نعمة لمن آثر المضي في الغياب.

لامس جبينها واضعا اليد الأخرى على فمها ، استيقظت وجلة كسمكة سمعت صراخ النوارس على حافّة الميناء .

- لاتخافي الليلة ليلتنا أريد مصالحة ذاتي والجو يغري بذلك.

-ڤالدي ماذا تريد ، أرجوك اذهب لسريرك ،أخاف أن تستيقظ خالتي ونقع

في ما لا يحمد عقباه.

ضمّها والأمطار التي تهطل لا يصل من صوتها إلا نشيش خافت، وبعض النقرات الوديعة من نُتف البَرَد ، وجدا نفسيهما يسافران مع ذاك النشيش في انكفاء تام يحصل للذوات تزامنا مع هطول المطر.لبرهة أحس أن القميص على ظهره بدأ يجف، ربما سيبدأ شوط آخر من التعرق.

بدت مستسلمة كصنم يمني يراقب الخراب ولا يحرك ساكنا أمام الحوثيين، وأوقف رغبتها في الكلام بقبلة جمّدت عروقها حتى ارتعشت ركبتيها ورقصتا رقصة الشبّوط في شباك الصياد.

حدّقت فيه بطاعة واستسلام سارحة كطفلة تنتظر تتمة حكاية الجدة أمام المدفأة ، فهل سيُقرأ للسحابة فنجانها ؟

نضّ القميص الأحمر عنها برفق ومهل ، فلمّا رآها مسجّاة منحنية شبه عارية ، كادت شهقته تفضح وجوده، كانت تضع عطرا ساخنا على عظم ترقوتها وتحت أذنيها ، اقتربت منه مطمئنة له ووضعت رأسها على صدر كث الشعر يشي بفحولة صاحبه،وقال لها:

-سيدتي وحبيبتي ومعبودة عيني . إنّي لأجد ريح الحب في نهديك لولا أن تفندّين .

فهبّ كبرياؤها مع الريح، وسحب جسدها العفيّ المفتول بعنف ورفعها فوق

ركبتيه بقوة من دون مشقة وقال :

-هزّي إليك بجذع قلبي يسّاقط عليك حبّا جنيّا وسمع اسمه على شفتيها ينادى بحروف متقطّعة :

- ف ا ل د ي

كانت ملتهبة تصد وتتمنع لكن دفاعاتها الإيطالية سقطت أمام قبلته الفرنسية بعد أن طوّق خصرها وأحكم الوثاق على ذراعيهْا وابتسمت في عذوبة صافية ونكست رأسها في استحياء، ثم مكثت لحظة تستمرئ لذة انتصارها ثم غمغمت: -أنا لك سيدي ومولاي فافعل بي ما تشاء...

كمن يصحو بلا اسم ولا وطن ولا أهل ، استيقظ متمهلا من باب الحجرة حتى يدركه وجدانه ، لازال غائبا ومغيَّبا عن كل شيء كما لو كان يستيقظ من إغماءات متكررة ؛ هاهو يفيق من ضياعه مسترجعا حضوره من غيابه، ونهاره من ليله وارتد إليه البصر خاسئا وهو حسير ، قد لعبت به الشهوة كما يلعب القط بالفأر قبل التهامه، والحال أن شهوته مقترنة وشغفه بها هذه المرة، بين عشية وضحاها تغير كل شيء، ها قد صار تائها أمام رخام شفتيها العامر بالأساطير ، هاهي تخطر في لجين روحه وجسده بكرة وأصيلا ، هاهواتخذها له سبيلا في معراج الحياة وفتح الباب على مصراعيه لعين قطر ستسيل انتظارا فانتظار والانتظار حالة عبودية قصوى يتكبّدها عبد في منفى لا يملك

مراوحته.

16

الساحرة عقيس

مرّ أسبوع قائظ من شهر أيلول ، انخفضت الحرارة نسبيا في اليوم الثامن، لكن الشمس لا تزال ترسل أشعتها الحارقة حتى وهي تسافر مودعة إيانا جهة الغروب، خرج ڤالدي و ورّاش للسويقة ، كان الباعة منتشين وهم يتنافسون فيما بينهم معلنين عن الأثمنة المنخفضة للخضر والفواكه، في حين يحمل الآخرون الجوارب والعطور والملابس الداخلية يطوفون بها المقاهي ، دون تعب ليقنعوا الناس بالشراء.

وغير بعيد جدا منهم تركن عربة العرضوض والتي تجلّت كقارب منهك في مرفأ مهجور بعيدا عن القوارب الأخرى ، اقترب منه ورّاش سائلا :

-مالك لا تتخد مكانا لك قرب الباعة؟

- الرزاق الله ، من يريدني سيأتي إليّ بإذن الله. ونحن الفقراء أ خويا ورّاش، لا نعرف كيف نصبح أغنياء ، وربّما أظن أنّه ليس مطلوب منّا أن نكون، فالدّراهم التّي تدخل إلى جيوبنا لا تستقرّ فيها ، والحمدلله على نِعَم الله.

لأول مرة يُسمع اسم الجلالة من وسط أسنان العرضوض ، المعربذ السرمدي في القرية ، فهِم ورّاش أنه اتخذ هذا المكان القصي ابتعادا عن كل نزاع أو شجار مع باقة الباعة ، وآثرا أن يشتريان منه ما يلزمهما للوحة العشاء الأخير ،

قبل السفر للبحث عن الكراء بين أسوار مدينة الزيتون بعد أن قوبل طلبهما هو و نبيل للالتحاق بالحي الجامعي بالرفض.

الدروب في مكناس محفوفة بالأحلام المؤجلة، وخيبات أمل معلّقة فوق الرؤوس كغيمات حبلى، ((مكناس يا مكناس ما بال هذه المدينة سكنتني كعفريت واستوطنتني استيطان بني إسرائيل للمقدس)) قالها وزفيره يتسابق مع شهيقه يتسابقان فور وصوله للمحطة حاملا حينها حقيبته الجلدية القديمة المتآكلة، بها مذكرته وبعض الروايات ،بينما حمل 'صاك الشمال' بصعوبة مكدّساً بملابس ثقيلة أغلبها شتوية لتقيه من البرد القادم ، اتجها لمقهى 'الطلبة' قبالة جامعة العلوم بحي الزيتون ، احتسيا شايا بسرعة ووضعا زادهما رهن النادل مع احتساب رسوم التخلص من ثقلهما قبل بداية البحث عن السكن الجديد.

بعد جهد جهيد وتدخل السماسرة تكلّل بحثهما بالعثور على غرفة بإحدى سطوح حي "المعاركة" بثمن مناسب لطالبين قادمَيْن من البادية ، سقف من قصدير تتخلله ثقوب ستتسرب عبرها قطرات المطر لا محالة، بنافذة تطلّ على المقبرة التي تأوي الكثير من القطط، من حسن حظهما أن مالكة المنزل زودتهما بفراش أولّي على شكل حصيرة من الدّوم جعل من الغرفة شبيهة ب " المسيد" لتحفيظ الأطفال الصغار القرآن الكريم ، ومخدّتين من الحلفا،

وأواني معطوبة، إسفنجة قديمة ، صندوق أحمر متعدد الوظائف، وهيكل سرير عامر بالأردة وبق الفراش،بالإضافة لأدوات المطبخ من إبريق شاي وكأسين ، قنينة غاز صغيرة وصحن كبير...

مالكة المنزل هاته امرأة مسنّة نحيفة ومحدودبة الظهر، موشومة الذقن تتوسط وجهها تجاعيد نحتها على محيّاها الدهر، وعلى أنفها تؤلول بحجم الفولة تدعكه طالما شعرت بالحيرة أو الارتباك وتلف شعرها في خرقة ملونة تتدلى أهدابها على جبينها،تدعى مي ميلودة ظريفة رغم مظهرها الخارجي المشين خصوصا وأن يديها لا تفارقهما المكنسة وكأنها الساحرة عقيس .

والمهم في الحكاية أنها أم لفتاة وحيدة في غياب الزوج الذي يعمل في حقول " كتامة" مهد زراعة القِنّب الهندي: الذهب الأخضر؛ استنتجا ذلك لكثرة سماعهما أغنية تصدر من نافذتها:

< وايلي وايلي

واخا منها نمشي

على كتامة مانتبدلشي

وايلي وايلي...>

المهم أجيل هذه ،فتاة شقراء كأنها تنحدر من أصول اسكندناقية لا تمتّ لعقيس بصلة ، رقيقة ونحيلة القوام ، وشعرها يغزوه شيب يطل من تحت

حجابها ليبرز على صدغها ، تبدوفي ربيعها الثلاثين ورغم ذلك تتقد وتشع حيوية ونشاطا ، وديعة وداعة الحمل لدرجة جعلت ساردنا يتجاوز الرؤية السردية " مع" كيف لا ووسامتها ونبرة حديثها الريفي أردت نبيل أرضا مذ أول وهلة رآها ظل فاغرا فاه واللعاب يسيل من فمه، وكلما رآها تنظف عتبة الباب ترتعده فرائصه وتخر قواه ، هائما في سيقانها الحليبية البيضاء ، ومن وراء الستارة المسدلة يتابعها، كان يجنّ وينادي ڤالدي ليشاركه حلقة مسلسلها وهي ترفع رأسها ،وبظهر يدها تقذف شعرها إلى الوراء،كان يحس بحبّات العرق وهي تنزلق على ذقنها فيمسح ذقنه دون شعور، كان اسمها إشراق وينادونها ب أجيل : اسم على مسمّى .

هاته الغرفة تنتظره لتلملم أفكاره المتشظية،وليلة الجسد العفيّ لم تفارق باله وفي فمه بقايا قبلة مسروقة، جلنار سيطرت على جل تفكيره، لكن هناك أمور كثيرة تظل مؤجلة عليه الآن أن يصبّ كل تفكيره في الدراسة ، وتكلم مع نفسه قائلا :

((منذ اليوم سأحاول أن لا أسمح لذاكرتي أن تستعيد نكبات حياتي الأليمة ، لن أدع اليأس ينقضّ على ظهري، ولا ماضيَّ أن يقوّض حاضري ومستقبلي))

الجامعة في مكناس حياة تموّج ، تظاهرات صاخبة وتجمعات للطلبة ، وحلقيات نقاش تخلق الرغبة في الاندماج السريع ، وحوارات سياسية حادّة

.مرّة سمع أحد الطلبة يقول صارخا في وجه طالب آخر:

-الماركسية نزلت من السماء، هوالنظام الأنسب للانزياح عن الجهل المالي لبناء مجتمع حداثي../ اقتصاد ريعي../ لا للفيودالية الإقطاعية ...

يمازحه صديقه الآخر قائلا:

-إن الماركسية دين سماوي إذا.

كما تحدّثا طويلا في حوار ذي شجون عن علاقة ارتفاع الأسعار بتراجع الوعي لدى الطبقة العاملة وعن متى سيدوي فيها معول الثورة ، وبدأ أحدهم يسبّ الأمركيين ويطنب على ثلاثي لين "ستالين، ولينين وبوتين" والآخر يحاول توضيح الفرق بين الواقعية والرومنطيقة فقال: الواقعية هي حين ندعو الصقر صقرا أما الرومنطيقة هي حين ندعو الديك صقرا...

بقي ڤالدي عاجزا عن الفهم رغم إعجابه بطريقة توضيح الفرق بين الواقعية والرومنطيقة ونادى : ((جلنار يا عشتار ما هذا الواقع الجديد، أية ماركسية وأي دين سماوي آخر، أي معول وأية ثورة ، أنقذيني يا حبيبتي من هذا المَحار ، ناداها كالمستجير من الرمضاء بالنار، فلو تعلم ابنة حادة ما يجري بداخله من تيه باسط ذراعيه في وصيد قلبه لولّت منه فرارا ولملئت منه رعبا.))

ليالي جامعية أولى كربونية ، أيام مشتبهة تمزقه إربا إربا، دقائق رتيبة تباع للموت اليومي، وثواني مستنسخة كالنّعجة دولي، شاي في الصباح والغذاء

والعشاء وماوراء العشاء ، عادة سيّئة ورثها هو خصيصا منذ الفطام، ويبدو أنهما سياصابان بهشاشة العظام ،وفقر الدّم ، وسوء التغذية.

الليلة سقط الصحن أرضا وآختلط البيض بالتراب وبعض الحصى، اختلط الحابل بالنّابل ورغم ذلك بُلع الكل إلى مثواه الأخير ، حتى سُمعت طقطقات نواجدهما ، وماعليهما سوى الصبر على ليالي الجوع، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء .ريثما وصول المنحة الجامعية، آه كيف لعقل أن يفكّر ويحصّل ببطن خالية وسط عراك جهيد لتنظيم وجبات التقشف والتقتير، كم استغنى عن الكماليات، ومُكرهاً لا بطل ارتدى ملابس قديمة متآكلة لا تعرف التناسق، ولم تر المكواة يوما ، وكأنه نازيّ وبطل جِرماني جُبل على الصبر.

هذا حال جل الطلبة الجامعيين النازحين من الضواحي والمداشر، حال يجعلنا نعاود التفكير في مقولة " لولا أبناء الفقراء لضاع العلم" حيث لا وطن للعلم في البطون المتضورة جوعا، أباطيل وضعها الأغنياء فثاق بها الفقراء وأسهموأ في صُنعها فآشتروأ الفقر بالصبر ،كمن اشترى الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم، وماكانوأ ناجحين، وحاولوأ التحايل على الجوع وتصوّرأ أنّهم خدعوه وهو خادعهم.

يُصبِّر ڤالدي نفسه ويتمتم بعبارات الأمل والتفاؤل .

- لكن خلف هذا التعب أمنية، وتفاءلوأ بالخير تجدوه.

رغم أنّه فقد آدميته بين أنقاض شوارع العاصمة الإسماعيلية وصار كظلٍّ مائل يمضي معوّجا يجر رجليه بنعل مهترئ كسيل جارف خلف أطلال السراب ، محاولا السباحة والغوص وإنقاذ نفسه من قارب البطالة، قارب به جرح غائر يجري به في موج كالجبال. وكل شيء يتحرك في صمت وتثاقل كأن حياته شاشة من زمن السينما الصامتة.

في السنة الجامعية الأولى قاتل وصبر ،وجدّ ووجد ،وزرع وحصد، سهر الليالي حتى من المنحة الجامعية كانت بمثابة راتب لأسرته يرسل لهم النصف والنصف الآخر يشتري به الكتب والمراجع، سامحاً في بطنه حتّى نال مراده محققا النجاح في الأسدس الأول ، عكس نبيل الذي صرفها في اللباس ، وقنينات "جاك دانييل" وعلى فتيات الحي وأولهم أجيل .وكلّما سأله أحد عن الإسراف والتّبذير قال : - سأعيش بالعرض ، ولا أريد أن أعمّر مثل سنديانة بلهاء، أربعون عاما ونَيْف تكفي، لا أريد غيرها ، وبعدها لن أندم ! يجب عليكم أن تعيشوأ وتفرحوأ ،نعم الحياة قصيرة لدرجة أن الإنسان يجب أن يسرق لحظات الفرح، وعليكم أن تكونوأ سارقين محترفين وجيّدين وإلّا انزلقت الحياة من بين يديكم.

17

الشريفة العلوية

أدمن نبيل على مقهى " الكابا" بحي حمرية الراقي ، مقهى مخصص لعشاق الفن الغربي فقط، جرّ معه ڤالدي ذات ليلة ففوجئ بتمايل الخصور والرؤوس والنهود ، وتردّد أصوات الراپ الإنجليزي ، وآهات تنفتها الصدور وسجائر محشوة بالكتامية ، بينما كؤوس القهوة والشاي ليس لها حيّز للوجود في ظل هيمنة " الڤودكا والسيپي" تلك الروائح المختلطة التي تندُّ من بنات حوّاء مدوخة تكاد تغميه وهو في غمرة الفرح المدوّخ والموسيقى الصاخبة تجعل رؤية نفسه مغلَّفة كأنه في بداية الكون وتشكّل المجرات، وذلك ما أشعل فيهما الرغبة في الرقص ،فراحا يرقصان كأنهما راقصا باليه محاطان بأجساد عالية ضريت حولهما سورا ، أو بالأحرى كأنهما قردا سيرك يلعب بهما الجميع،والكل يشجع بالمكاء والصياح كأن الكل في حالة سعر ؛ حفرة كهذه كفيلة أن تنسيك الحليب الذي رضعته من ثدي أمك، ومع الأيام ازداد التردّد على هذا المكان ،كل مساء يتوغلان إلى الطابق الأرضي حيث الضوء منعدم إلاّ ما تسلّل من بعض النوافذ، مكان طويل ومعتّم كالقبر ، وصارمولعا بهذا الهَيْت، وأمسى يُنصت في خشوع لأغاني الراپ ممسكا بمبسم النرجيلة، ورقصات مؤخرات يتحركن أمامه كما لو كنّ من زبد ذائب، يرقص على نغمات

أحلام غير معلنة تُخرج سمك الزّعاف من القوقعة . هناك تعرّف على سمراء أنسته في جلنار وأنسته في نفسه ومبادئه ، كانت مكتنزة القوام بصدر ممتلئ وببشرة شوكولاتية تزينها تسريحة شعر إفريقية حتّى بدى رأسها كأرض محروثة ، اقتربت منه :

- أهلا بك ' نوّرتينا'

- الجلسة منورة بنورك.

- أي نور تتحدث عنه وأنا كالفول السوداني.

قهقه ضاحكا ومحاولا في نفس الوقت رفع معنوياتها.

-لا بل كبُنٍّ برازيلي ينذر بالإدمان كما قال درويش " وتشابهت أنت وقهوتي في اللذة والمرارة والإدمان."

- سلمت كلماتك يا شاعر .

دنت منه فمدّ رأسه في خنوع وخجل.

- اسمي فاطمة وكنيتي العلوي وينادونني ب الشريفة العلوية.

وبسخرية لاذعة مصحوبة بمستملحات الحديث قال بصوت غليظ:

- الله يباااارك فعمر لالّة .

- هههههه مجرم .

- وبهدوء أسطوري التفت إليها وجاوب :

- وأنا كريم وينادونني ب ڤالديڤيا أو ڤالدي إن أردت الدلع.

بدأ الحوار ينفض عنه غبار الخجل مكسّرا متاريس الصمت ، بعدها نهضت من كرسيها مثل زاحفة من الزواحف تتحول إنسانا فجأة ، فدبّ الرعب فيه مثل جيش من العقارب يسعى تحت جلده لمّا رأى قوامها وبالضبط خدّي مؤخرتها المنحوت كفلقتي حبّة فاصوليا، وطلبت منه التّرجّل معه لحديقة أمام المقهى وخرجا من الصخب والأنواء.

يا لها من أمسية خريفية يتخلّلها نسيم منبعث من تلك النسائم الأطلسية الرائعة بنجوم بارزة ككائنات برّاقة ولدتها السماء في أبهى مساء ، كما ابتسم قرص القمر الأبيض في رئة السماء ؛ قبّلته دون سابق إنذار حتّى تدفّق الدّم في وجهه وبدأ يهدر في شرايينه، ونبض قلبه يصعد إلى جمجمته ، وأحسّ بطعم مختلط من العسل والحنظل تحت لسانه،ورطوبة في أنفه ، وعرق جامد يسيل على سلسلته الفضية ، كان فمها ينزّ خمرا وتتفوه بكلمات ساخنة وتطلب منه أن يعتق رقبتها من الحياة. وصارحته:

- النبيذ الجيد يصنع الخطيب الجيد وربما لهذا السبب يحسن الرُّهبان تنميق الكلام.
- نعم، أحسنت يا قِسِّيسة .

كانت طرقات القدر تأخذه إلى حيث لا يعلم ولا يتخيل، فماذا سيقع لبهلوان

يلعب فوق الحبال؟ ، أخذ الإذن من نبيل بالانصراف وكان نور الفجر قد اكتمل ، ثم ركبا سيارة أجرة أوصلتهما لمنزل مي ميلودة وفجرهما ينذر بالمجهول ، وسبقها وعيناه تدوران وتمشّطان النوافذ تاركا الباب مفتوحا، رأته مالكة المنزل يتسلّل ، فضحكت ،وضحكا معا ،إذنُ ضمني بالدخول، جعلهما يمشيان بثقة الأنبياء الصِّغار، فتح باب الغرفة من دون صرير ،ووضع يده على الجدار الإسمنتي يتحسّس موضع زر الكهرباء ،وتبعته كعبدة زنجية ، وهو كديك منتفخ داخل الكوخ ينتظر دجاجته، ردّ الباب بباطن قدمه اليسرى ،وجد الزرّ كبسه فأُنيرت الغرفة ، ووعلّق قميصه الصوفي إلى المشجب الحديدي، والمفتاح على المسمار الكائن في الزاوية ،وبدون مكسرات ولا مقدمات تعانقا كما لم يتعانق لبلاب وشجرة من قبل، لزجين وملتصقين والثياب تتساقط تِباعا تساقط رؤساء العرب ، حتى وصل الالتصاق منتهاه كشمع ذائب؛ بشرة سمراء تتهادى كجبل لا يهزه ريح،ثديين كجوز هندي سقط من شجرة استوائية،رضعهما ورضع طعما لذيذا كالماء بعد عبور الصحراء، وهي تتكووّم كقنفد يخشى أنامل الآدميين، وصار يعبرها صاعدا نازلا من أقصاها إلى أقصاها متمرّغا بين ثناياها كالخنّوص بين وهاد بطنها وجبلي نهديها العاليين ، وأفكاره الحيوانية السّادية مجنّحة ورابضة على أدغال ذاكرته المتشابكة والغارقة في مستنقعها الآسن ، وهي تبدو

كمخدرة مسجاة على ظهرها ، يالها من طير أبابيل رمته بجسد من سجيل فجعلت مُضْغته كعصف ماكول ، راح لسانهما يلتفان حتى تجمّعت بركة صغيرة من الريق تحت لسانه المتدلّي منه ككلب عطشان ، مبلّلة حلقه الناشف جرّاء اللهفة ، وزادت حِدّة الالتفاف والدوران فتارة ينزلقان وحيناً يلتفان،صارت ترى بعينيه ويسمع هو بأذنها ، رفعها بمشقة فوق حصير الدوم ، وكانت أرضه وسماؤه حتى انتفى إحساس الشخصية وحل محلّه التملك،حتى من السارد لم يعد يعرف أيهما فوق وأيهما تحت من كثرة تناوبها على الهبوط والصعود... وناما مبللان بالعرق كأنهما يغرقان في الوحل.

استيقظت الشريفة العلوية قبله لتبدأ جولتها اليومية المعتادة ، كزهرة السّاكورا اليابانية تنبت مع الفجر لتموت مع الغروب. وتبدأ قصة ثأرها من نفسها هكذا :تعيش الإبرة قصة ثأر منذ أن ثقبوها .

بينما ظل ڤالدي مستلقيا على الدّوم ضالّا ولا مبالي ونائيٌّ كقارّة ابتلعها المحيط ، ومتعبا مثل ثور إسباني أنهكه الركض وراء الوشاح الأحمر ، إلى أن أيقظه نبيل من سباته.

ضاعته حصته الجامعية لأول مرة ، ومن قال أنها ضاعت بل ضيّعها ، ومن قال أن الصُّواع قد سرق بل هو الذي وضعه في رحال الشهوة ،هاهو آنجرف مع التيار ونسي الرسالة الأسمى التي من أجلها غادر القرية، وبدأت فكرة أن

الأدب العربي أرخص عملة في المجتمع تطفو على سطح أفكاره،الأدب ليس وسيلة لأكل الخبز بل الأدب يشبه مستشفى المخبولين، وبذلك عوضتها فكرة الالتحاق بالعسكرية والتحزّم بحزام المخزن، وذلك ما فسّر انخراطه في العمل السياسي الطلابي بشكل خجول فرغم انضمامه لفصيل طلابي " الأمازيـغ" ، ظل متواريا عن الأنظار مدفوعا بالحماس الطُّلابي فقط كتمثال جامد يغيم في مسحة من الهلام الأبيض،حماس لم يصل لدرجة النّضال والانخراط والظهور في المشهد السياسي مخافة تورطه في قضية تحرك عليه كبّة النحل ، و"يتوسخ معها الضوسي" وبالتالي عدم قبوله في أي وظيفة عسكرية ، يقال : كثرة المآسي التي يمرّ بها المرء تجعله يألف ويتعايش مع الخطوب ويضرب الحساب للكوارث "، ويتوقع كل شيء وبعدها يتوكل على الله ، ويحمد الله على نعمة عدم اختيار البشر للأقدار ، فلو جُعل الاختيار لبني آدم لآختار الجحيم بعينين مغمضتين ...

وبفوضى منظمة وقع مالم يكن في الحسبان،أُخذت صورة لثالدي وهو يعانق الشريفة العلوية من طرف صديقتها قرب " صهريـج الصواني" ، واجتاحت عالم التواصل الإجتماعي،ولأنّ العالم صغير والأخبار السيّئة تصل بسرعة مهما تعثّر المُرسِل ، وصلت الصورة من يد ليد ومن نقرة إلى نقرة إلى أن حصلت بين يديْ جلنار وبسرعة جاء الردّ منها فعلّقت على الصورة :

أسد عليّ وفي الوغى نعامة *** يا ويح ويحك كيف ذاك يكون

وزكية التي صارت تكنّ له احتقارا يكاد يندلق من عينيها ومن ابتساماتها الصفراء ، علّقت مُساهمة في زيادة الطّين بلّة:

خائن هو

لاتسأليه...لا تغفري

هو لن يقول أذنبت

وأنت،أنت كما أنت

لن تسألي ، لن تغفري

فقط ضُمّي دمعتك

وارحلي فارحلي ثم ارحلي .

ردّ على زكية أوّلاً في الخاص :

يا أخت جلنار لتكن أناملك نفحة من التصالح والسلام لا نصلا للطّعن والقتل ، كأنك إبليس بلحمه ودمه .

- أرجو ألّا يخيب مسعاي في التفرقة نهائيا بينكما يا خائن .

ناشد الشريفة العلوية لمحو الصورة، ووبّخها بعد ذلك مهددا صديقتها بمتابعتها قضائيا بتهمة التشهير والتصوير بدون إذن، في حين حاول إصلاح الجرّة مع جلنار متّصلا بها.

ردت من أول رنّة وعلى غير عادتها بدى صوتها غليظا مرتفعا :

- ألو ...من معي (زاعمة أنّها لم تعد تعرفه).
- معك الخاطئ المذنب الراجي للمغفرة فهلاّ غفرت، الخائن الذليل فهلاّ سمحت ؟
- ناشدتك الرحمة هلاّ سكت.

شعر بحزنها من تنهداتها وسرحانها، ولكنه يعرف مدى تعلقها به ، وسيعرف كيف يُخرج خصلة شعره من العجينة وتمرّ زوبعة الفنجان على خير.

- سيدتي الإنسان بطبعه ضعيف وخائن و...، وقبل أن ينهي نحيبه وفلمه الخادع صمتت ولم تنبس ببنت شفة ،ربما تردّله الصاع صاعين و قطعت في وجهه الخطّ .

هنا أدرك مطرب الحيّ أنّه لا يطرب، وبات وحيدا ككلب مصاب بالجرب، وكأمير تحوّل إلى ضفدع،كان وقع قطع الاتصال عليه بتلك الطريقة قويا ترك كلامه كصدى جرس صدئ لكاتدرائية عتيقة.بينما أغلقت على نفسها الباب كحال جلّ الفتيات وبدأ مشروع الدموع يتهيأ في عينيها ، ظنّت أنه لن يخون ، لن يفارقها بعدما أصبحا كالقدم والكاحل، كالراعي وعصاه ، وكالعصا وظلها، لكنه خان ،وبعدها قلّبت في صفحات " الفايسبوك"، ووجدته قد كتب على الحائط:وبعضي لديّ، وبعضي لديك ، وبعضي مشتاق لبعضي فهلاّ أتيت.

وردت عليه:

- **الله عليك يا درويش.**

عادت قولة " الله عليك يا درويش ترخي بظلالها على ذهنه، وعاد وعد الجدة بوحة ، وندم ندما شديدا على خيانته لجلنار ، واعتذر مجددا طالبا آخر فرصة وعند جهينة الخبر اليقين...

18

لعنة البروستات

فاطمة جالسة على الكرسي قبالته ويدها على خدّها متطلّعة إليه بحسرة وهو يضجّ بألمه رافعا رأسه بعينين جاحظتين كأنه جسد بلا جلد ، وساقاه متخشبتان كأنهما خبز فرنسي ، تأمّلته بعينيها الغفورتين ، ورفّ قلبها حنانا ، المسكين كان ممدّدا في الغياب ورأسه المستطيل مليء بالتعرّجات يتدافش عليه الذباب ويسلب منه الدّم ولا يستنقذ منه شيئا، آه كم ضعف الطالب والمطلوب ؛ تنهّدت المسكينة بصوت مخنوق وحشرجة بكائية :

- الزوج هو الرّب الصغير على الأرض، وعليّ طاعته بأي ثمن .

الصّحة كالحياة لا موعد لاضمحلالها ، ورّاش الحديدي صار ذائبا على الفراش على حين غرّة ودون سابق إنذار ، عانى من مرض عضال ،مرض خبيث لامس إحدى خصيتيه ، حرّك معه لعنة البروستات.

عظام بارزة كأنها ما دكّيْنا من أكل السبع، وبطنه الضامر عاد كوصلة لحمل الخبز، يده مزودة بالمصل وغناء حزين يتصاعد من أنين جسمه،وغاص في الألم الصاخب يهدهده علّه يستكين.

هل كان "الحلّاج ليتحمل أذى أكثر من هذا في مأساته، هل كان يستمتع وهو يلقي بيده إلى التهلكة؟

عضلات مرضوضة بالعذاب بين حياة وموت وسكون ومنيّة ، وبين بداية ونهاية ، لكن من بين هذا كلّه تبقى النهاية هي الحقيقة الوحيدة مهما بعُدت وانتسبت للمجهول.

هرعت إلى المطبخ هاربة من خوفها من المجهول ومن أفكار الفقد ، وانغمست في غسل الأطباق وكأنها تغسل دماغها ، في تلك اللحظة لم تفكّر إلا بعضّ تفاحة خضراء لم تنضج بعد ، وبحركة عصبية عضّتها بقوة حتى جرحت لسانها بالعة الدّم واللُّعاب والتّفّاحة ، فقدت رغبتها في كل شيء ، ولم تشأ أن تتّصل بثالدي مخافة أن تفضحها نبرتها وصوتها المبحوح ، وخوفا عليه من أية ردّة فعل،لكن زكية أفت بالغرض لتُشعل في صدره جذوة وقبس العتمة .

تطلّع إلى نبيل الغارق في نومه، كتمثال بوذا،وخرج وصوت آذان الفجر في الجامع القريب يخترق سكون الليل ، صوت لا يمت للشيخ الرّماني بصلة، ثم اتجه للمحطة وصورة ورّاش لا تفارقه،وروائح البول الثقيلة بجانب المحطة تفسد الهواءوتزكم الأنفاس، وفي انتظاره لاكتمال نِصاب الحافلة رمق فأرا يتشاجر مع قطٍّ بنيٍّ ملطّخ بزيوت الحافلات ، والقطّ في موقف ضُعف بينما بدا الفأر كملاكم في وزن الرّيشة يستعرض عضلاته ذهابا وإيابا، هنا أدرك أنّه عن الحقيقة قد أُصيب بالعمى،ربّما القط فقد رغبته في التهام الفئران كما فقد

ڤالديڤيا الرغبة في كل شيء، تحجّرت ابتسامته،وتجمّدت عضلات وجهه وتزجّجت نظراته ثم بلع ريقا مرّا حسبه جزءا من مرّارته،والخوف عاد لينغرز في عينيه مثل طرف السكّين،الخوف من أن يصل ورّاش إلى بوحة قبل أن يفرح به وبعمله وبأحفاده ، تشمّع ذهنه وانزلق فؤاده على أرجوحةٍ عالية طاولت باب السماء، وبدأ يتنازل عن عرش الصبر مُغمضا رموشه محاولا الانفلات من الأسئلة المتبخّرة في خُلده ، وما إن وصل "للبلاكة 60" قوبل بعتمة جاثمة على صدر القرية تُزنّر الفضاء بسواد كثيف ، لطالما اختنق عند وصوله لهذا المكان ، مكان مقوّس كذراع محبٍّ أشرف على العناق ، قرب " البلاكة 60 " لا وجود للزمكان ، من هنا تتجلى القرية نائمة على ظهر جبل متوسط الحجم ، والجبل ينام بدوره على صدر جبل أعظم منه وأجل ، الكل يتوقف هاهنا ، لم يشعر حتى صرخ بقوة كصوت ارجوحة وسط مدينة مات جميع سكّانها.

-على أحدهم أن يطوي هذا النهار فأنا عالق في عتمة الصباح النّاصل.

قالها وقلبه كحشو بندقية ، بل كتلك الفزّاعة التي تلوّح للجراد بأن الحقل هاهنا ، حقلٌ كمنجل محمل بصراخ السنابل و وبكاء الفزاعة وأهازيج الفلاحين.

وتراءت له سطوح تمتد فوقها حبال الغسيل المرصوص بغير انتظام ،

والصحون الهوائية بيضاء منتصبة كرايات استسلام... نزل من الحافلة بخطوات مابين التثاقل والهرولة والدوار يلف رأسه، وما إن وصل الباب فتحه بصعوبة ويده ترتعش ، هرع إليه وجثى على ركبتيه مُقبِّلا رأسه الذي بدأت شعيراته البيضاء تتساقط كأوراق الخريف، وناصيته تلمع مثل أسلاك فضّية نحيلة،أمّا نظراته فتُلقي بظلال الخفوت على بؤبؤيه اللذيْن صارا كزرّين مدوّرين حادّين ، ويتسع السواد من تحت عينيه وحاجبيه المقوسين كسيفين معقودين دون وبر.

-"إبّانو" لا تتركني وحيدا يا سندي ، لاتخف شافاك الله وعافاك ومن كل شر وقاك، ستعود إلينا بصحتك وعافيتك .

الطاولة الصغيرة بجانب السرير تتكدس عليها الأدوية ، والضماد ، بينما يحدق هو بعينيه المتعبتين كأنّه يُبصر الفراغ ويرى مالا يُرى وذاكرته تتحمّل ثقله وثقلها الذي يزداد مع تعاقب الدقائق ، ليخلّف زمنا لا يرحم ولا يمر مرور الكرام ، متراكما حتى يغدو حملا شبيها بالخطيئة العظمى، يغمض عينيه ليشعر بالألم أكثر يغزوه ،الألم الذي لا ولن يشاطره فيه أحد ، وحده يحس به وليس من غيره من يتحمله،متأكدا أنه لن يموت وحيدا ،سيموت معه هذا الألم ويتمدد بجانب نعشه ،و ذاكرته أثقلها هذا الألم .

وما الذاكرة في عمقنا سوى حاجاتنا التي لا تنتهي،حاجاتنا المنغرزة فينا

والتي دسسناها برغبتتا منتظرين زهر الأيام حتى ينال منها الأفول. ولو كان بإمكان ورّاش أن يهب نفسه ويبيعها لاختيار ما ، لاختارما لا يخضع للذاكرة لأن الزمن ينتفي حينما تقتحمه وتقتحمنا الذاكرة ،في حين أن الزمن أرخص ما في الوجود فالكل يمتلكه...، ولو كان بإمكانه أن يجثو على ركبتيه لسجد ل " إيريس" إلهة النسيان طالبا منها طرد الحيرة والقلق وإزمير الدهر الذي ينهش خشب عقله نهشا.

حصص الكيماوي متعبة وكأنها موت بطيء ، لكن تبدو أنها تفي بالغرض ، وصلنا للحصة الخامسة بعد العشرين ، قررڤالدي أن يصطحبه ليطمئن بنفسه عن حاله وحالته ورافقته جلنار تتقدمهما فاطمة، في حين جلست زكية لوحدها في البيت ممدة على الكنبة تُقلّم أظافرها ، وتستمع لأغنية شعبية مرددة إياها مع المطرب وكأن العالم لا يعنيها، وصل الجميع للمستشفى قادهم " بايا" الممرض خلال الممر إلى حجرة طرق بابها وفتحها لتنفذ إلى الأنوف روائح التعقيم والأدوية التي زادت من هلع واضطراب الكل ، تخطّى الممرض الحاجز الخشبي وحيّى الطبيبة حينها لمح ڤالدي الحجرة بسرعة كأنه يقوم بعملية " الزووووم"، الحجرة بها سرير ضيق وعدة أجهزة معلّقة ودواليب ، وحوض متسخ بجانبه جرذل به ثلّة من الأقطان ملطخة بدماء قانية ، والنور خافت والسقف تتعلق فيه مروحية كبيرة مكسرة من

إحدى أجنحتها وتدور دورانا بطيئا ؛ دخل الجميع واتّكأ ورّاش على كتف ڤالدي ، على الأقل لا يزال قادرا،على أن يمشي على قدميه ، المرضى الذين وصلواْ إلى وضعه لزمواْ الفراش ولم يغادروه ، هو محظوظ أنه مانفكّ على قيد المعمور. فيما عاد "بايا" الهوينى إلى الخارج .

تاه ڤالدي في ثنايا عيون الطبيبة والتي بدت كوردة وسط المزبلة ، خدّين مورّدين ببشرة حليبية ، بدينة شيئا ما وصيرة قصر " مارادونا" ترتدي رداءا أبيضا نظيفا ، اطمأن لها على الأقل ستكون ودودة مع ورّاش ، ثم نظر إليها فآبتسمت ابتسامة خفيفة، ابتسامةٌ كسّرت إيقاع الخوف .

-وجهه منور اليوم ، يبدوأنه بدأ يتعافى. فليواضب على تناول الدواء في أوقاته وسوف يغذو بألف خير .

ردت جلنار رافعة أكفها للسماء:

-من فمك لأبواب السماء .

وأنشد ڤالدي :

مابين طرفة عين وانتباهتها *** يغير الله من حال إلى حال

بينما ورّاش يستغفر ربّه بينه وبين وجدانه وهو بين يديها كالذنب المغفور ، وتذكرعلى حين غفلة عندما كانت تُجالسه بغلة القبور ، يقتسمان كؤوس الخمر، بجانب كورنيش الخرابات وبقايا الإنسان المحادي لسور المقبرة ،

و "مولاي بوعزة" نائمة تتقلّب ذات اليمين وذات الشمال ، وندم ندما شديدا،وترجى الله أن يأجره في مصيبته ويخلفه خيرا منها وتمتم ببعض الأدعية التي حفظها بمشقة.

عندما تحتلّ شاشة النلفزيون ، أوالهاتف صور دمار غزة ، الطفل ريان الذي تضامن معه العالم،يبكي فؤادها ويتذمر قلبها ، وحينما ترى عجوزا طاعنة في السنّ يجرّها زوجها على كرسي متحرك وهي تطوف وتسعى بين الصفا والمروة يرفّ وترفرف مضغتها ، تتحكم بجهاز التحكم وتقلب القناة لتصادف صور كبار القادة والمسؤولين تغيظها ربطات العنق الباهضة وقمصانهم المهفهفة النظيفة ، فتطفئ التلفاز لاعنة العالم المجفِّف لدماء الشوارع ، ويسوح الكلام من فمها مثلما يسوح الحديد حين يكتوي بالنار، وتفرّ إلى محرابها ، هذا حال فاطمة هذه الأيام ، جلنار لم تنبس بكلمة بشأن صورة الشريفة العلوية ولم تحفر في الماضي،زكية متوارية عن الأنظار داخل عالمها الرقمي، حكيمة وسعيد وحسناء مشغولون بتوفير القوت اليومي ،يعملون ليل نهار في الكواليس.

كل رزيّة تحمل في تلافيفها مزيّة ، وكلما قست علينا الشتاء بزمهريرها ومطرها ، حلّ لنا الربيع في أبهى حلّة ، كانت آخر حصّة كيماوي لورّاش، الممرضة أدنت له بالمغادرة نهائيا ،خروجه بتلك الهيئة لم تكن مفاجأة البتّة

بالنسبة لثالدي وهو يرى قائدا متآكلا آيلا للسقوط ، يتقدم بخطوات عائدة من البرزخ ، خرج من العيادة مبطئا لا داعي للعجلة فدروب القرية تعرفه، وهواؤها الجامد يلج مسامه فيحس بأنه حي يرزق ، تحاشى النظر إلى الدراجات النارية والسيارات التي تمر بجانبه كالشهب الميتة،التي لم يعد يسوقها غير المخبولين من الشباب وشابات اليوم.توحّش شكله وصار كجثة مضمحلة لبحر مخملي تهدهد الريح موجاته ، ماكان مفاجئا هو ابتسامته التي لم تفارقه ، رغم أنه يرتدي قميصا طويلا لا لون له ، كتفاه العريضتان تقوستا وقامة قائد القرية المفترض السامقة انحنت ، لحيته الكثة علتها صُفرة النشوق المحترق كجنة طاف عليها طائف فأصبحت كالصّريم ، وعلى جلده قشرة داكنة تميل إلى البني حولها رقعة متكلّسة من لعاب ومخاط، لكن نظرة الصقر لا تزال هي هي رغم إصابة جناحيه .

رأته أمامها كالهامة ، كالظل الخافت يعرج قليلا دون أن يرضخ لاستعمال عكازه ، ليخطو خطوات صغيرة ومترددة ليخفي عرجه ، اقتربت منه فاطمة وانحنى على حضنها بقامته المقوسة كأسد اشتاق لعرينه:

-< الحمد لله تهنيتي من داك العجب د الكيماوي وعلى سلامتك >

- < الله يسلمك وينجيك، ضرني الجوع >
- < غانعلفك مزيان وتولي حسن من الأول >

البروستاتا كانت تأكل من قدرته على المعاشرة مجددا ، رغم ذلك هي تحتمل العيش معه معلقة ذلك إلى ذكريات حياتهم الحميمية في البدايات ولياليهم المِلاح التي يحرث حقول جسدها فيها إلى أن ينام ويكرر عمله في الليلة الموالية ،عملا بالشرع :

{* نساؤكم حرث لكم *}، كان بحاجة إلى سند بعدما كان حارسها الشخصيّ الذي يهابه الجميع ، بحاجة إلى سفينة تحمله فوق الخِضمِّ الذي يرى أنه يحوّطه، بحاجة إلى جبل يعصمه من طوفان الوحدانية أو إلى خشب يتمسك به ووجد ضالّته فيها وفي حضنها...

19

***** لا تركب معهم*****

مرّرته على شفاهها حتّى أصبح لونهما محمرا كالفراولة ، وبعثت قبلة فرنسية انعكست على مرآتها وبقي الأثر مصوّرا ، وتحسست صدرها بأصابع مبعثرة ، لكن سرعان ما بدا الحزن عليها،أوّلاً لمعرفتها أن ڤالدي يكره أحمر الشفاه وثانيا لتساؤلها على التوالي:

-أليس ظلما أن تكون المرآة مكانه، أوليس من حق شفاهي أن تتلذذ هي الأخرى بشفاه بشرية ؟ أليس هذا ما يقع عندما يكون صدر الفتاة متاحا لتجلس عليه آلة الكما ن فقط ؟

وشعرت أنها تتكئ على الفراغ ، ورفعت يداها إلى السماء مهددة كما لو كانت تتهم القدر واستطرت تقول:

-الحلال/الحرام، الموت/الحياة ، إن لم أحصل عليه حلالا سأحاول الحصول عليه حراما لأن الحياة هي السبيل الوحيد للموت.

أحست بخطواته تدبّ دبيب النمل نحو الغرفة ،تبعته بعينيها حتى خلع ثيابه راميا إياها أرضا دون مراعاة للتنظيم كما يفعل باستمرار، قميصه الأزرق مقلوب الأكمام وسرواله من "لاطوال" صُنع في تركيا متكوِّم في الزاوية إلى جانب توأم حذاء على السرير، بينما يرتدي جوارب مختلفة النوع واللون.

دفعت الباب مرتدية قميصا مفتوحا تجلى منه الثديين حتى رآهم في حلل زاهية ومواكب ما أدراك ماهي،ومالبث أن جاء بخطاب حنيذ دونما مقدمة أصاب رغباتها في مقتل وقال:

-جلنار قرّرت عدم العودة لمكناس، جمعت "الضوسي" وسألتحق بركب من تحزّم ب"السمطة".

كليلٍ أُدين لظلمته أمسى وجهها حالكا وتجمّد الدّم في مقلتيْها وأردفت تقول:

-لا ، لاأرجوك لا تذهب يا ڤالدي ، لاتركب معهم وإئو إلى صدر علم يعصمك من وطن قد يبيع لك الفرح باهظ الثمن بالتّقسيط ، لا تبع نفسك مقابل حريتك بثمن بخس دراهم معدودة.

- أنت ترين حالتي وحالة الأسرة ، لا أستطيع تحمّل مصاريف الجامعة خصوصا بعد قرار نبيل الالتحاق بأخيه في الإمارات. ولابدّ من إيجاد عمل فقد ضاقت نفسي ، وحتّى الحمير لا تطيق الحياة بدون عمل.

-لا تتسرّع ، أكمل دراستك عن بعد ولا تجعل خطواتك تقَبّل التراب فتركع الحرية على الأعتاب.

وسكت كأنّ أفكارا بعيدة تشغله. وبهدوء وبكلمات باردة بطيئة قال :

-حبيبتي جلنار قرّرتُ وأنت تعرفين أن <راسي قاصح > والآن آن لي أن أئن كي لا أئن من بعد ، وغذا صباحا إن شاء الله سأجرّب حظي أوليس الصبح

بقريب، وحال بينهما الفقر والبطالة وكان فكره من المغرقين .

خرجت من الغرفة والدمع من مقلتيها ينسكب،وكيف يملك دمع العين مكتئب ؟ .

20

يوم الحشر

حاول عبثا أن ينام تلك الليلة ، وكأن النعاس شبه معجزة سماوية حينما يصل إليه ، تناول حبّة من " الرّوزينا " ونصف حبّة " زِيام " دون جدوى، وطنين محركات السيارات يترامى إلى أذنيه، ليبقى مُقرَّح الجفنين ، ثلاث ساعات وربع وهو يطلب الشفقة من النوم ، كم عدّ الخرفان وركّز مع زفيره وشهيقه ، فكّرفي قصة يأجوج ومأجوج محاولا الهرب من صوت العالم الخارجي، لكن دون أن يرقّ النوم لحاله ، وكبكب الوسادة على الوجه الثاني، شعر به بارداً أكثر من الوجه الآخر،ومحرّك الثلاجة القديمة ازداد ثغاؤه ليزداد معه توثره، كلاب تنبح أو بالأحرى تعوي وراء كلبة شارذة سائحة،المعلّم بوعميرة أب العرضوض يُنزل ستار محلبته القصديري لترتجّ أرهف خيوط أعصابه. النوم بالنسبة له كابوس، عذاب، أقسى من عذاب النهار ، حتى وإن نام بصعوبة يستيقظ بحلقٍ جافٍّ، ولسانه كقطعة من حطب .

-كيف يمكنني أن أناااام ؟ كيف ينام فكري وترتاح جفوني؟

حرّك ساقه اليسرى ببطئ شديد ، وعانق طرف الوسادة ، وتذكّرجلنار بطلة رواية " أبو مسلم الخرساني" ل " جرجي زيدان " ، وهي تنام على فراشها الوثير والخادمة تظفر شعرها أمام قصص مؤنسها الضّحّاك.ونام نوم الذي

لم ينم.

جرس هاتفه يرنّ بإلحاح كأنه ليس هاتفا بل دجاجة باضت بيضتها للتّوّ ، وقفز من سريره كأن أحدا عضّه، نسمة باردة من شهر آذار في ذلك الغسق أزاحت عن عينيه لحاف التّعب والأرق رغم تكوّن هالة سوداء تحت عينيه الخابيتين : يا فتاح يا رزاق يا مقسم الأرزاق.

خرج وضوء الأسئلة خفت في جمجمته وهو يرى الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر، فجرٌ ممتزج بخطى العابرين وروائحم الثقيلة على الأرصفة و" الكوميسارية" تبعد عليه مقدار نصف ساعة ، لعلّه وصل متأخرا رغم هرولته وخروجه المبكّر حيث وجد أمامه طابورا هائلا من المرتفقين ينتظرون دورهم في الدخول أوّلاً ، ولقياس الوزن والطّول ثانيا،شباب وشابّات اختاروا نفس المصير، متحمسين،جاءوا من كلّ حدَب وصوب ، الكل جامد في الصفّ وكأنّه يوم الحشر ، وقبل أن يُنفخ في صوره تأبّط ملفّه كدجاجة تحضن بيضها . أمامه شاب طويل القامة كأنه لاعب سلّة يغني ويهمس في أذن صديقه،ويتبادلان النكت في ارتياح تام ، حينها لعب بطلنا بعنقه ربما تمدّد لسنتمترات أخرى لكن هل يولد أطفال من تزويج الدُّمى ؟ ، سبقه لاعب السلّة ذاك،دخل وخرج بسرعة ضاحكا يتمحتر كالطّاووس.

عندما جرّوا قدم الحصان ليضعوا لحافره حذوة جديدة، قدّم الفأر رجله،

وقال: أنا أيضا !.

هناك بان الفرق بين الحصان والفأر وتمنى لو أعاد دقّ عظامه وإعادة رصّها لتطول قليلا ،كأنّه يخوض معركة ضدّ عموده الفقري ، وقف أمام آلة عبر الطول، وبجانبها شرطيٌّ يجير نظره كخبير بلدية يتفحّص المكان بوجه يشبه البوم ، عينان تشعّان دون رفرفة كأنّهما خلقتا بلا رموش، وبجانبه الأيسر عصا بيكاربونية يهشّ بها على كلّ من زاغ عن السبيل أو كلّما ازداد اللّغط ، ويلعب بقبّعته فتارة يضعها على رأسه و يتأبطها تارة أخرى لتبرز صلعة كأرض قاحلة، جاء دوره وفي ركن من القلب ارتيابٌ وقلق وشعور غامض ، كما لو أنّه اجتاز عتبة الممكن نهائيا وكل آتٍ آيلٍ للفشل والتّهشم ، ثم وضع رجليه على الميزان واشرأبّ عنقه متظاهرا بطول قامته رافعا قدميه قليلا ، كان شاطئ عمره بادٍ والدّرب نحوه لا أمواج فيها ، وحتى دنى وتدلى وكان قاب قوسين أو أدنى من الوظيفة ، وفجأة ثلاث سنتمترات حوّلت بحر آماله إلى قاع بئر لا ضوء ساطع فيه ، ((كل شيء في هذا البلد مبني على معادلات دقيقة ، آينشتين لم يلق حتفه ،من يقول العكس يجلد ألف جلدة ، دون رأفة .))

خرج حزينا وتعلّق في إطار الباب، وطلب من لاعب السلّة أن يجذب جسده ربّما انفصلت إحدى فقراته وتمدد بضع سنتيمترات ، حتى نهره الشرطي

بكلمات نابية فاغرا فاه حتّى تجلّى ضرسه المسوّس كيومه ذاك. ربّما تنقصه سنتيمترات ثلاث وربما تنقصه ملايين ثلاث تعوّض قصر قامته ، أووسيط يغنيه عن هذا كلّه.

الإنسان أحمق، هذه صفة لازمة، تتكرّر بلا توقّف،وربما يتناقلها جيل عن جيل بالوراثة ، حُمقٌ لم يعرف أيّ شبطان قفز به إلى فمه في تلك اللحظة حتّى صرخ في وجه الشرطي قائلا :

أنا أعرف أن جميع الناس يركضون من أجل الرّغيف والخبز ، ومنهم أنا ،ولكن هناك فرق شاسع بين الخبز الذي تنتزعه من الشمس ، وآخر تأكله بمتعة دون مشقة ، وخبزك أنت يلقى إليك مثلما يلقى العلف للدابّة،ورماه بالحجارة ، ومالبث يعدو حتى أمسكه شرطي آخر من رقبته.

سُجن ثلاثة أشهر ومثلها موقوفة التنفيد ، بتهمة إهانة موظف عمومي أثناء مزاولة عمله ، لم يعطوه خبزا في اليوم الأول ، واستوحش الشاي في اليوم الثاني،في السجن حاول قتل نفسه ، ضرب رأسه بالجدار غير ما مرّة ، لكنّ الموظفين أمسكوا به وقالو كلمات قاسية،حاولواْ أن يوسعوه ضربا لكنه كان يهددهم باللجوء لحقوق الإنسان ومقابلة المندوب ، حراس يتناوبون ويتقاسمون الطيبوبة والقسوة بشكل عجيب وغريب ،لكن أمين الأسمر الطويل ذو الشّامّة على خدّه الأيسر كان أبشعهم وأقساهم ، وكأنه جُبل على

الكلام من تحت الحزام ، ورضع الكلام النابي من ثدي أمه حاقد، يتجاوز ويخترق القانون الداخلي ،تجاوزات تختفي وراء الخطاب الحقوقي المناور للنظام ،ومن هذا المنبر أقول له ولأمثاله ،هذا إن كلّف نفسه حمل الكتاب : أكثر الناس قلقا في السجن هو السجان،وأن السجون الذاتية أبشع من أكثر الزنزانات صلابة كما قال " بيتر فايس".

أضناه التعب في الاسبوع الاول ، وتسرّب إليه اليأس على مهل ، زد هليه السهر وقلة النوم ، لم يكن سهرا عن طواعية بل سهدا إجباريا بفعل المعارك المتكررة للسجناء معارك تصل لتطاير الأسنان ولظهور الدماء، قبل تدخل رئيس الغرفة لفض الاشتباك لينكمش ڤالديفيا في ركنه كقنفد في زمهرير فصل الشتاء ، كاتما غيضه ودودة الغيظ تنخر قلبه وتلعن الوطن والشرطي الأصلع ، ويزداد الغيض بكثرة أنفاس النزلاء المكتظين، في زنزانة ضيقة ، وكريهة الرائحة ، يعمّها البرد والرطوبة الحادة . طلب من أفكاره أن تكفّ عن الصراخ فالليل نمّام ، والناس نيام، وانزوى في صمت للمداولة ، منتظرا فجر الفرج وأن يفتح باب الخلاص ، خلاااص ،وتعود الأحلام لتستوي كالشمس في كل مكان .الشيء الوحيد الذي كان يخفّف من إزمير التفكير الذي يهتك عرض عقله، هو أمنيّة سجين معه محكوم بالمؤبد: أمنيته الوحيدة أن يعود لبيته ولو لساعة لينام ويستيقظ على وقع صوت بائع الخبز اليابس الأعور

عندما زارته أمه وسعيد وورّاش حاول الجميع أن يتماسك ، رغم شدة بكائه وتأثره لما رآهم واقفين في طابور التفتيش في الساحة الفاصلة بين زنازين الاعتقال وقاعة الزيارة ، هناك بكى بكاءا شديدا ،متهما القدر الذي جعل أبويه يزوران السجن قبل الحجّ .

مرت الشهور متثاقلة ، لكنها تجربة من تجارب الحياة وكأن الربّ قال له {* ولتصنع على عيني *} هي فرصة لتصحيح المصار ،وللعودة للأنا ، والتّكفيرعن الذنوب ، فيها حفظ أحزابا من القرآن ، وتاب توبة نصوح ، ونسج علائق ربما تفيده بعد خروجه . ورُبّ ضارّة نافعة.

((يحدث أن يتحمل الصّوف أخطاء النسّاج كما يمكن للنسّاج أن يتحمل رداءة الصوف ،والصوف هو الاختيار والنساج هو الإنسان وكل منا يتحمل خطأ الآخر، فإذا حدث لآدمي أن أثقله جسده وأضناه،فأحسن وسيلة للتّخلّص منه هو الالتحاق بوظيفة عسكرية ، نعم أردت أن أصبح شرطيا لأحمي الوطن لكن أحميتَ نفسك يا ابن أمي كي تحمي الوطن، صار عليك الآن أن تحمي نفسك من هذا الوطن .))

أول جملة قالها بعد انقضاء العقوبة وخروجه من الباب المظلمة :

- هل كان علينا أن نُحْرَمَ من الحرية لأشهر معدودة، لنعرف قيمة الوطن هل كان علينا أن نسقط من علو شاهق ، ونرى دمنا علي أيدينا ، لندرك أننا

لسنا ملائكة ، كما نظن ؟

وهل كان علينا علينا أيضا أن نكشف عوراتنا أمام الملأ ، كي لا تبقى حقيقتنا عذراء ؟ .

قالها وهو يُمجّد " درويش" ويلعن السجن والسجان و الوطن والقدر والشرطي وعموده الفقري ، وقصر قامته، والعالم أجمع ، وعاد ارتياب مزمن يظفر جدائله، وبكى بكاء الطفل الذي أضاع أمه وسط الزحام؛ شيء ما تصدّع بداخله جعل الاتجاهات تتشابه إذ لا بوصلة تشدّ عضده لولا أمه والأخ اللذان وجدهما في الانتظار وشدّ بهم أزره ، وفرّ من ذالك المكان كما لو كان فارّا من عدوى مرض فتاك.

* ذهب التّيس إلى الغابة لينمو له دنَب نمر، فعاد حتى دون قرنين * ، هذا حاله الآن لكن ماجدوى أن توصد الأبواب بالأقفال الثقيلة بعد إخراج الثيران ؟ ما جدوى أن يبقى المرء في مكانه مقوقعا. عليه نسيان ما وقع،وبداية صفحة جديدة .

هو الآن خارج الزنزانة ، وخارج أسوار السجن،يعالج أمراض السجن المترسبة وأولهم " عرق النساء"،ويعُالَج من أمراض الوطن .ولولا نعمة النسيان والتّناسي لمات الإنسان من تُخمة الهموم والعذاب والأفكار التي تجول في رأسه. لكنّه نسى ولو عادت المآساة طارقة بابه ، أخبروها أنّ لا عنوان لديه.

21

الصّافنات الجياد

لم تكن الإرهاصات الأولية وبوادر البدايات، دائماً هي المحدد الرئيسي للمسار ، الذي يسلكه ابن آدم ..ربما كانت مخارج الطرق، هي المحددة لذلك المسار الصحيح ..وربما كانت تلك المطبات الموجودة على القارعة ، هي التي تدعونا أن نعيد التفكير، هل هذا هو الطريق الصحيح، أم لا؟ يجب على كل امرئ تحديد طريقه، ويتحمل تبعات اختياره، تلك هي الحياة، باختصار وتلك هي اختياراتنا..، وأصعب شيء في الاختيار أن تبقى في مفترق الطرق ، في الوسط سواءا أكنت من تختار أو من سيُختار.

أخذ ورقة عذراء وراح يرسم عليها خريطة الوطن العربي ولوّن وطنه بالأزرق حتى بدا كجزء من البحر، ورسم رجلا ونساءا وعساكر وأفواه مكمومة وأعاد تمثيل الجريمة المرتكبة في حقّه برسمه للشرطي الأصلع ، آه كم أصبح الوطن ضيّقا ممزقا مبتعد الحدود ، مبتور الأطراف كما لو تزحزحت صفائحه بفعل الزلزال ، ثم مزّق الورقة،وأخرج مذكرته نافضا عنها الغبار مقررا تحويل مغامراته ومآسيه ورزاياه إلى عمل فني ،كانت فكرة كتابة رواية آخر حل يخطر في باله وسط هذا الضياع بعد أن أحس بنفسه مثل غابة يعبث بها حطّابون بلداء ، فعلا كما كان يقول له نبيل :

(اكتب يا ڤالدي حتى تكتشف أغوار نفسك وتتوغل في مغارة ذاتك البلّورية) وتساءل مع نفسه:

((كيف أصنع في الكتابة فن من لا فن له ؟ وكيف أصنع من حروفي عالما مخمليا جميلا، عالم أفتقده في الواقع ؟ كيف لي أن أخلق أحداثا وشخوصا من اللاشيء ؟)).

إهتدت بوصلته أخيرا إلى الطريق التي ظلّ يمرّ بمحاذاتها ولا يراها ، واكتشف القارّة المفقودة في محيطاته ،ثم استجمع أفكارا كقطعان صافناتٍ جيادٍ منتقاة بعناية ليُطلقها إلى مراعي الصحائف البيض،وبدأ يُشتّت الكلمات كديك بعثر طعامه في كل الجهات ثم عاد ينقره حبة حبة ويلتقط نتفه . التصميم المبدئي لبنية الأحداث، فجَمْعُ المادة الأولية، ووجد جلنار تفرض حضورها في كل مرة، وأطلق العنان لقلمه ليركض خلف الأحداث للإمساك بمسارها، وحوّل التراكيب المضطربة إلى وصف دقيق بتفاصيل منصهرة في بوتقة سردية تستلهم عوالمها من واقعه المعاش ومن خيباته وأحلامه المجهظة ومن توتراته ثم من هواجسه المختلفة مستعينا بمعاشرته للنصوص الأدبية الموحية ذات الإبداع الفلسفي والأدبي، موظفا لغة إيحائية شعرية حبلى بالاستعارات والتشبيهات، والتلاعب بالكلمات كما يفعل "درويش"،وكذا الاقتباسات من الذكر الحكيم لتبدأ الشخصيات في رسم ملامحها بنفسها

مُشكّلة عوالم خاصة.

منطلقا مما وقع له مع جلنار على الربوة بفستانها الأبيض ، ومشيرا لقصة الربان البارع مع زكية وكيف تملّص من قبضتها كسمك النّون ، ورغبته في السير فوق قنطرة الأدب العربي ودراسة ثناياه؛كماجعل لورّاش وعربذته ومرضه قسطا من الصفحات ، وكلما تناسلت الأسئلة في خلده صعد السطح أو اتجه لصخرة ديور جداد ، وكأنهما مكانين للوحي والإلهام ، فيهما يرى قريته رؤية بانورامية تساعده على السرد والوصف .

22

حلبة التباري

اليوم كان الموعد مع حسن الرّماني ، " مؤذن القرية"، والذي يسكن في مكان قصي على الجبل تظهر له القرية من الأفق مستديرة بجبال داكنة تكسوها شجيرات خفيفة من العرعار والبلوط لتبدو كسنِام جِمال ، إن الإنسان في الجبل يتحوّل إلى مخلوق عجيب ، يسمع أحسن مما يسمع أهل القرية أسفل ، ويعلو ويسمو بنفسه أكثر منهم ،يرى الأحجار والقمر قبلهم ؛ ذهب إليه ليشحن بطارية قلبه بالآيات والذكر الحكيم بعد انهيار حائط ثقته بنفسه وليخلصه من الرّان الذي استولى على قلبه.

لاح في مدخل البهو ، متوكئا على عصاه ، في جلباب بسيط ناصع البياض ، ورائحة المسك تعمّ المكان،تطوق وجهه الأسمر الضامر الوضيء ،لحية بيضاء مسترسلة حتى منتصف الصدر ، طاعن في السنّ ورغم ذلك عيناه تألقتا بحيوية جذّابة ونشاط صوفيٍّ روحي ، زاده جمالا ،وأضفى على أساريره نورا برّاقا يجمع بين العتاقة والنضارة .

- مرحبا بك يا ولدي حللت أهلا وسهلا في بيتك.

- كُتِبت علينا التلبية عند نداء القلب يا عم حسن

جلس في ركن انبثق منه نور مزال يجذب إليه فراشات من طالبي الهداية

والغفران.وبدأ الحوار على صفيح ساخن دون مقدمات:

-أوليس الله هو الرزاق العليم ؟

-بلى فالله قرن الرزق بالغاية من وجود الجن والإنس وقال *{ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون . ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون . إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين }*

- ولماذا لم يرزقني؟

وقف بصلابة الصخرة العظيمة في فم النهر وقال :

- استغفر الله – المومن مصاب وذلك إنما ليمحص الله ما في قلبك فينظر أتصبر أو وتسخط.

- إن كان الله يرى فإنه يرى ما في قلبي ويعلمه عليه أن يجازيني.

حاول الرماني تزكيته وتطهيره من أدران الشك والريب وقال :

- استغفر الله يا ولدي ، الله سميع وبصير وحكيم و *{ الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدرله}*

- لمن يشاااااء !!

- نعم لمن يشاء ، والله بكل شيء عليم ولو علمت سعة رحمته ولحمدته على حسن اختياره لك

{ أحسب الناس أن يتركواْ أن يقولواْ آمنا وهم لايفتنون }

- اسمع يا استاذ إن كانت الأغنية ضرورة للشحرور هي أيضا ، فمهمته
- لأولى هي بناء عشه وإيجاد رزقه ورزق صغاره.
- *{ ما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها }*. ولن تستطيع يا بني أن توقف الثور إذا أمسكته من دنَبه ، كما لا يمكنك أن تزيد سيل الوادي إذا ألقيت فيه جرة ماء، أوتقوي هبوب الرياح إذا نفخت فيه.

يا بني إن الشفاه نفسها قد تذوق إما العسل أو السّم،وفي نفس السماء يطير الحمام وتطير الصقور، والوجه نفسه يا بني تأتيه الدموع والابتسامات، كما يستقبل القلب ذاته الرصاص والورود .

يا بنيّ ، ما أجمل الهدى بعد الضّلال، وما أروع الاستقرار النفسيّ بعد التشرّد ، ما أبهى الجلال والسؤدد بعد الحيوانية والبهيمية، < والفاهم يفهم> غادر وعيناه حازمتان وشفاهه مطبقة .

كان بودّ ڤالدي أن يطول الحوار أكثر لكن الشيخ الرُّمّاني قام من مجلسه آذنا له بالانصراف.

بدت كلمات الشيخ غريبة ومتداخلة خيمت على عقله المهدود ، وجاءت معها بأفكار كخيوط متعددة الألوان ملتفة على مغزل طويل ، حاول فك الرموز والكلمات الغامضة دون جدوى وتنهد قائلا :

< جيبتك يا عبد المعين باش تعين ، لقيتك يا عبد المعين عايز تتعان >

وهبط من الجبل هبوط العصفور من عليائه مخنوقا كأنه في جيده حبل من مسد ، وضائعا كطائرة تحوّم لتحط لكن المطار يرفض استقبالها لسوء الأحوال الجوية، وهو يهمّ بالهبوط مر على المقبرة المُحاطة بأشواك السدر الذي لا يموت هو ولا يرحل أبدا ، هنا ترقد روح بوحة ، قبّل الشاهد وتلا عليها ماتيسر من سورة يس ، وأخرج مذكرته التي صارت لا تفارقه أينما حل وارتحل وردف يكتب مسترجعا حكايتها على الوشم وكيف كان يستلقي على ركبتيها مستسلما لأحاديث التنّور ووصاياها على جلنار بالخصوص،وترك قلمه يخط كما يُترك الحبل على الغارب لتنسكب اللحظات من دلو الزمن آخذة شكلها الهلامي مثل هيروغليفيا تقرؤها الذاكرة ، ومثل عودة اركيولوجية إلى الذات بغية القبض على بعض الماضي الذي لا يفتأ يمضي مناجيا قبر جدته وكتب: ((جدتي منزلنا عاد طللا للتعساء ما عاد فيه من يؤنسنا نحن أيتام في هذه البيت الضيق ،لا قرع عكاكيز على مصطبات بيتنا ، ولامن يصنع لنا الخبز على شاكلة غيمة

لو أن جدتي لا تزال حيّة كانت ستلقي النكات علينا ليلًا ونهارًا،

مع بوحة لا نعرف الخوف، بدعوتها " دو أكيناج ربي " كانت حارستي وحارسة جسر لا تفوته فائتة

إذا مررتم يوما بهذه المقبرة، ورأيتم شاهدي أيضا فادخلوها صامتين ،وسيروا

ببطئ كيلا تزعج أقدامكم رُفات الراقدين فيها تحت أطباق الثرى ، وحيّواْ عني التراب الذي ضم جثماني ،ثم اذكروني بتنهيدة وقولواْ: هنا دفنت أحلام الفتى ڤالدي الذي نفته صروف الدهر إلى ماوراء الشفق الأحمر الحار، وهاهنا توارت أمانيه وانزوت أفراحه ،وغارت دموعه وانتهت ابتسامته بين شفتي اللاحياة ، وضعواْ الشاي قرب رأسي بدل الماء وإياكم أن لا تتلواْ وصيتي... وإن كانت لغتي ستضْمحلّ غدا فأنا مستعدٌّ أن أموت الآن ، وأن أرمي العالم كله وراء ظهري من أجل تتمة هذه الرواية ودخول حلبة التباري ، وأُضَحّي بكل شيء حتّى وإن ضحيت بالخروف كله في سبيل الحصول على آليته)).

23

*****غيض من فيض*****

يرن الهاتف دون سابق إنذار ، رقم غريب يتصل ، ظل صامتا يحاول تمييز الصوت فتجلى صوت الشريفة العلوية المبحوح ، استفسرته عن حاله وأشياء أخرى لا تعنيها وعن نبيل ، وناشذته العودة لمكناس ، كانت فاطمة العلوي متحررة لدرجة كبيرة تنسيه كل منغصات الحياة عكس جلنار المنغلقة والكئيبة ، لكنه بقي صامتا متملّظا يخفي آهاته.حتى فهمت نفسها وانقطع الخط وتنهد من صميم القلب قائلا:

- **أووف لا يمكنني أن أمسك بطّيختين براحة يد واحدة.**

مهمت بلغت حاجة الفلّاح للخبز ، لايستنفذ كل الحبوب، أفضلها تبقى للبذار وهل هناك أفضل من جلنار لتبقى في الدار والدوار.

لابد من إتمام روايته والتركيز عليها أكثر فأكثر،الارتماء في كنف خضرة الطبيعة وحدها قادرة على تصفية ذهنه ، كان يبحث عن هنيهة صافية فوجدها في الماء النّمير الذي يشقّ ضفتي الوادي بمحاذاة مدخل القرية شمالا وهو يتدحرج بجانب الربوة في عشية ربيعية تزينت فيها الأرض كأنها عروس مجلوّة ترتدي حلى الجنّة الخضراء ، والسماء صافية ،بعيدة...كذلك الفرح ، و حقول القصب ممتدة ووديان ملتوية بين التلال ، تسمق بعض أشجار

الزيتون والأوكالبتوس وأسند ظهره لشجرة عالية علو شجر اللّيلك الهندي وكأنه في البيعة المباركة تحت الشجرة المباركة. متظلّلا بأغصان السرو ،ومذكرته تنتظر سيّدها ليأمرها بتلقّي الكلمات وكتب كما لم يكتب من قبل: ((حين ينقر غراب عينيْ ميت سقط في الوغى،لايفكر الغراب إن كانت العيون لبطل أو لجبانٍ جبان ، هذا ما يعرفه الأصدقاء ، أصبح الكل يُكذبونني ،ويطعنون في صفحات حياتي مها ابيّضت وبعضهم يركب على الموجة وعلى جراحي بأحاديثَ ومقولات الإيديولوجية والفلسفة والدّين . صباح مساء عن مصير الوظيفة ومصير الدراسة ، وعن واقع السجن،وكأنني مجرم بالفطرة بعدما كنت كائنا مسالما يمشي بجانب الحائط ، ويتجنب المتاعب والمشاكل، بشر يسعى كباقي بني البشر عن ضربة حظ يحارب بها البطالة ، كنت ألمس شماتتهم في كل ابتسامة صفراء جوفاء، ألمس ذلك في حفل تأبينهم الفاخر وفي عزائهم الغادر.

كلّ من في الغرفة لاحظ وقوع الكأس، لا أحد لاحظ رجفة يدي. هذا حالهم ولربما لهذا خلقت جهنم .لم يخلق الله السعير عبثا ،خلقها للمنافقين وأولهم هؤلاء،عليّ استدراك كبوة جوادي : جوادٌ فشل في الدراسة الجامعية وفشل حتى في الحصول على عصا وقبعة لكن لن يرض " بروميثوس " من الحياة بهذا النّصيب وما على " زيوس " سوى مباركة ذلك،وخنجري لن يرقد في

غمده حتى يصدأ ، لقد اجتزت القنطرة كلها لوحدي، ولا حاجة بي الآن لأن أرى في عيونهم ذاك الأسف الخادع ، أسف الخشب المسندة ،سأكون بطلا والبطل ليس عليه أن يرتدي جلد الأسد ليكون بطلا ، فقد يختفي تحت الدرع الفولاذية قلب جبان، ليس عليه سوى معرفة كيف يلعب بالقلم .))

وجلس هناك حتى رأى الهلال مضاءا بنور متلاعب فتذكر أن عليه الذهاب.

شيء قليل من وصف زكية وكثير من المحادثات مع جلنار عربذة ورّاش واستسلامه للمرض ، وحال فاطمة ودندنتها في محرابها ، وسمر بوحة ودروس الرّماني الكاتارسيسية .كفيل بإيجاد إخراج جيد لروايته، ضف عليه مي ميلودة و أريـج و نبيل وعالم الشريفة العلوية المُثخن بالغواية ، وحالات الناس في الحافلات ، وحلقيات الطلبة في الجامعة ، وإن آقتضى الحال زد عليهن العرضوض و إرم ذات العماد و بايا الممرض والطبيبة ، أما الكواليس فلها قواها الفاعلة الخاصّة ، وها أنت تُمسك بعروة الأدبي الروائي الوثقى ، كل هذا المونولوج دار في عقله بسرعة غريبة مشجعا قلمه لإعطاء المزيد ويحرث فوق أرض الورقة فالثور لا يُعرف في بداية المحرثة بل في نهايتها.

واستسلم لخُضرة المكان مستمتعا بها كفلّاحٍ يستمتع بمرور سحابة .

كان عليه التّعجيل بمهمة إنهاء الرواية قُبيْل بدء المعرض الدولي للنّشر والكتاب ، لعله يجد له مكانا بين الرفوف وقبل بدء المسابقات المحلية

والجهوية ولِم لا الوطنية والدولية ، ربّما تكون غيضاً من فيضٍ قادم وحاولت سفينته تحديد وجهتها كي لا تضيع وتتقاذفها الأمواج بعيدا عن كلّ الضّفاف بلا مرساة ولا مرفأ،لا يريد أن يكون " ماجلّان". استعان بمقولات لأدباء مرموقين ودوّنها لئلا ينساها وأعجبه قول " جول رونارد" "الأدب مهنة تضطرك إلى إثبات موهبتك كل يوم لأولئك الذين لا يملكون أية موهبة" .

كما آثر قول " رولف والدو إيميرسون " : الكتابة الجيّدة نوع من التّزلّج الذي يقود الكاتب إلى حيث لا يرغب" .

وإن كانت الكتابة أكثر المهن بؤسا ، باستثناء مصارعة التماسيح " . في نظر " أولين" فهو مستعد للبؤس ولمصارعة التماسيح أيضا وهيّأ تفسه لماهو أبعد وأشقى ، وشغله الشاغل هو استرجاع الحلم وجعله واقعا : حلمُ ولادة رواية من رحم معاناته ، حلمٌ بدأ يطفو على نهره الذي كان بالأمس القريب ناضبا.

24

*****الغربة في الوطن*****

الكلّ يحمل العلم الوطني ووجوه يومئذ محمرّة تتوسطها نجمة مخضرّة ، وأعلام ترفرف في الأعالي سؤددا، مزيج من الأغاني والشعارات وصفير هنا وتهليل هناك، القرية لم تعد خاوية على عروشها بل أحياها الله بعد موتها ، ترامى إلى بصره حشد يتجه في اتجاهات مختلفة زمرا وفرادى والكل هائم ورأى الناس سكارى وماهم بسكارى . " إنجاز تاريخي غير مسبوق : المغرب في نصف نهائي كأس العالم فيفا قطر 2022 . " هكذا قرأ في جريدة سقطت من أحدهم من فرط الزحام ؛ كل هذا حرّك فيه قطرة ما تبقى لديه من الإنتماء ، انتماء القطرة للوادي وانتماء الفتى للوطن ، وحرّك فيه أيضا رغبة في مصالحة الذات ومصالحة الوطن ، رغبة لا تأتيه إلا لِماماً ، لكن يا ترى ما هو الوطن ؟ الأرض ؟ القرية والتلال الجرداء والربوة ؟ أم تلك الطريق المقوسة كذراع محبٍّ أشرف على العناق ؟ الوطن هنا عيون قاسية تنصهر منها الضغينة والرّصاص والتنمّر وعبارات السخرية،الوطن أن يجوع الإنسان فيه يا ڤالدي ،وأن يتيه في المحطّات والشوارع باحثا عن عمل وأمل . ما أقسى الغربة في الكلمة ، والغربة في المدينة،والغربة في الحب ، لكن الغربة في الوطن أقسى وأمرّ ، ولكن كل هذا لم يبق منه إلا ساعات وينتهي.

جلس على كرسي أمام مقهى "بوگنين" وحسنا فعل حين وثّق اللحظة وكتب:

((كل ما توصلت إليه الآن هو أن كل تجاربي الفاشلة وإحباطاتي الماضية ، إنما كانت تضع في الواقع الحجر الأساس الذّي كوّن لديّ كل هذه المفاهيم، وتوصلت إلى قناعة هي أننا خُلقنا لكي يقدم كل منا شيئا فريدا ، وأن هبة خاصة ترقد في أعماقنا هي الوطن . سأكتب من أجل نفسي والانتصار لحلمي، من أجل عرس الجِلنّار ، ومن أجل أمي وأبي وإخوتي ، ولأجلك يا وطني رغم وضعك لي في الهامش ، سأهرب من العدم إلى الوجود وأتفرّغ قليلا إلى زمني الثمين ، زمني الخاص بي لأبنيه لبنة لبنة،في أحايين كثيرة أهرب عن ومن نفسي قليلا،لأخط على الصفحات أثرا باقيا وعذرا يا وطني إن رأيتك بعين السخط فعين الرضى عن كل عيب كليلة *** لكن عين السخط تبدي المساوئ.))

يقال : عندما نرتقب عودة الصياد نرى كلبه أولا، فالدي رأى تباشير الرواية تقترب من الاكتمال، رأى الكلب على الأقل في انتظار الصيّاد وما يحمله من غنائم .

25

*****فاتتني صلاة*****

أخذ وجبة العشاء مبكرا وبسرعة فائقة دون مضغ ، وخلا إلى غرفته ليململم أفكاره ، فتح حاسوبه وأخذ يبحث فيه عن دور نشر تحتضن عمله،وقبل إرسال نسخته الإلكترونية أضاف صفحة للرواية هروبا من هجوم النقاد أو متحايلا عليهم ربما:

((إن أحسستم بتباعد بين السارد والأحداث فهذا التباعد يسمح بتوفير مساحة مخيالية وجمالية تحرر الذاكرة من متابعة التفاصيل في خطية مزعومة ،وتتيح تمثل المخزون عبر الاستبطان والتأمل ، وإفساح المجال لصوت الذات ، وإن شعرتم بالتقارب بين السارد والبطل والكاتب فهذا حال الرواية الواقعية،وإن اختلطت عليكم الرؤى السردية فماذاك سوى تحفيز خيال للمتلقي وزيادة في شغفه وأفق انتظاره للرواية، كما ينشط ذهنه ويجعله يعيش التفاصيل بدقة كأنها واقعية ، وإن شممتم رائحة السّرقة الأدبية في بعض السّطور ، فأقول لكم ، لولا شغفي بها ما خطّها قلمي وقبلها قلبي، فقلبي عزيز لا يكتب إلّا لعزيز، ولولا قراءة الكتب ما زدت خطوة واحدة للأمام .

أنا الآن في الطريق للنشر لم يبق لي لا الوقت ولا الحق في التغيير قد أكون كمن

" يستنوق الجمل " ويفاخر ببلاغته لكن ما اؤكده أن قلبي من كتب هذه الكلمات بدون تفكير ، فروايتي هاته مثل سجادة تم صنعها بسرعة قبل إقامة الصلاة لأدرك تكبيرة الإحرام، كثيرا من الخيوط ملتوية ورسومها غير منتظمة ، شيء مبهم ، أرى فيها زخرفة متعرجة لكن لم أعد قادرا على تصحيح هذه الأخطاء ، كاتب مبتدئ يحاول شق اسمه داخل منظومة أدبية ليست بالسهلة، وحتى يتسنى لي ذلك لابد من فك السجادة مرات ومرات وإن فعلتها ففاتتني الصلاة.))

الكلمة حين تُكتب تخرج من يد الفنان مرة وحين تنشر تخرج مرتين وإلى الأبد ، قالها و هو يطالع العنوان "والآن آن لي أن لا أئن ".

راودته فكرة تغييره غير ما مرّة ربّما لطوله متخيلا إياه آخذا حيزا كبيرا على الغلاف، و فكّر في عناوين من قبيل :

- عرس الجلنار
- زهر الرّمان
- ڤالدي وجلنار
- أحلام الفتى ڤالدي
- ورقة حظي
- الربّان البارع

لكته استقر أخيرا على عدم تغييره لغرابته أولا و لسجعه وجاذبيته ثانيا ، ولكونه باعثا على الحيرة والشك والتساؤلات لدى القارئ ، ومربكا أفق انتظاره منذ العتبة الأولى وفيه شيء من الحنكة والدهاء والغموض في التلاعب بحروفه بين الهمزة والنون، ليجعل التنبؤ بمحتوى الرواية صعبا، والرواية الجيّدة هي التي يصعب التنبؤ بمحتواها ولا حتى نهايتها.

وبعد ذلك أرسل نسخته الالكترونية النهائية إلى بضع و عشرين داراً للنشر الوطنية والعربية ، كما شارك بها في مسابقات أدبية مختلفة .واستلقى على ظهره منتظرا جوابا يشفي غليله ويخمد نار انتظاره،والصبر يهرول به فوق جمر الغظا .

يستيقظ متعبا من الانتظار ، بالكاد يرفع جسده المنهك من على السرير ، يسرع إلى الهاتف ، لعلّه يجد فيه ماينسيه ذاك الإرهاق ، ثم يقلب صفحات "الإيميل" ، لا شيء سوى رسائل يومية على "الفايسبوك" من أشخاص لا عمل لهم سوى تحيّة الصباح والمساء.

وطال الانتظاره لأسابيع قبل أن يفاجأ برسالتين في صندوق بريده الإلكتروني .ارتعشت أنامله قبل الاطلاع عليهما:

الأولى: كانت العبارة قصيرة ومُقتضبة :إشارة إلى معروضكم الخاص بنشر مؤلّف "والآن آن لي أن لا أئن"، نشعركم بعدم الموافقة.

- ((هل تريدون أن أموت جوعا، هل أتسلّل عبر الحدود واهرب من أتون الوطن، ماذا تريدون مني بالضبط ؟، لماذا نشرتم كتبا متراكمة مثل التلال، لا موضع للأدب فيها ، بئسا لكم ولدار نشركم .))

كان ردّه على هذه الشاكلة .

الثانية : كان نصّاً مستهلّاً بالتّحيّة :

تحية طيبة كريم ،

قرأنا نصك الروائي بتمعن، نص يغري بالمتابعة ولم لا بالنشر ويوافق طموحاتنا نحن كدار نشر ، ونحييك على وصفك وتشبيهاتك الماتعة والخيال الواقعي والواقع الخيالي الواسع، كل هذا حفزنا على التفاعل الايجابي مع نصك ، وندعوك غذا على الساعة التاسعة صباحا للتحدث عن إجراءات النشر وستجد العنوان في رابط الرسالة أسفله .

منشورات الأدب العربي .

خبر زفه لأمه ، سرّت المسكينة لدرجة أنها بكت بكل حرقة وصلت ركعتين استخارة وطلبت من الله في صلاة مطولة أن ييسر أمر فلذة كبدها ، كانت تعلم حجم حبه لعمله و درجة تعلقه به، والقيمة المضافة التي سيجنيها من هذا العمل.

شروق يوم العملية

يستيقظ في الصباح مبكرا ، يتطهر ويصلي الفجر ،ركعتا الاستخارة كان قد صلاهما في السحر ، يرتدي ملابسه و نظارة لأول مرة صيّرته أديبا ، ويخرج من المنزل دون أن يتناول فطوره رغم أن فاطمة قد هيأته له ... يخرج ممتلأ بالحياة ، هذا الصباح رائع يزيد من راحته ، اتجه للمحطة ، هذه المرة لا مكان " لمكناس " في مخططاته ، بل هي الرباط التي قال عنها يوما أنه لا طاقة له بها وجنوده ، والآن يقول:

{* ادخلوأ عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون . وعلى الله فتوكلوأ إن كنتم مومنين *}.

مع وصوله لمحطة " القامرة" تذكر قصيدة في الرباط ل " درويش* يقول فيها :

في مدينة الرباط ، المرفوعة

على أمواج

الأطلسي، العاتية ، يمشي

الشاعر، على الشارع

بحثا عن مصادفة المعنى و،

عن معنى الصداقة

يعرف النخيل جيدا ، ويسأل

المارة، عن

أسماء الأشجار الأخرى

حاملةِ الجمر ، دون

أن يحصل على جواب واحد ،

كما لو أن

الشجر وجهة نظر أو

استعارة

يا لها من أبيات في الصّميم ، تعبر عن حاله،والموج يتلاطم أمام عينيه ، والأشجار مختلفة تنظم صفا كبنيان مرصوص ، والكاتب الشاعر يبحث عن شارع العمر ، وعن ماهية الصداقة ،لكنه يخاف أن يكتوي بجمر هذه المدينة بناية ضخمة في شارع " العرعار " ، أمامها رجل أمن خاص يحمل هو الآخر عصا وقبعة ، ((وهل تُحرص الكتب ، من ذا الذي سيحاول سرقة الأدب في هذا الوقت ؟)) ، قدّم له نفسه وأراه نص الرسالة ، كان جواب رجل الأمن الخاص منافٍ تماما للشرطي الأصلع ، لا يمت له بصلة ، كان مؤدبا وواعيا .

- مرحبا سيدي ، المديرة تنتظرك في الطابق الثالث على اليسار ، هل أرافقك؟

- كلا ، سأذهب لوحدي شكرا لك شكرا ..

دخل رحاب دار النشر متوجها للطابق المنشوذ وهو يتمتم آية الكرسي للمرّة السابعة ، هاته المرة على الأقل لم يدخل متوّجا بالأوهام ، ولم يسبقه لا لاعب السلّة ، ولا لاعب التنس ، لن تحدد آلة الطول طوله ولا الوزن وزنه، فقط كلماته من لها الحق في تحديد مصيره ومصير روايته.

هاهو دخل بملامح وقورة ، جادة، تظهر بقوة على محيّاه ، وانتصبت سيدة ساطع لونها من مكانها،بحجابها الأسود الذي يليق لها ، ولا علاقة لها ب " خالتي المكناسية ذات قصة الشعر الذكوري" هل تذكرتموها ؟ .

- تفضل لا شك أنك كريم ، أو ڤالدي بطل روايتنا .

روايتنا !! نا نا نا ، أعجبه ضمير الجمع هذا واستيقن أن الأمور على ما يرام .

- نعم هو هذا بشحمه ولحمه وعظمه ههه .

تفضّل يا كاتب ، شاي أو قهوة.

الأدباء يحتسون القهوة ، لكن الشاي أفضل لي إن سمحت.

تحرّكت لتشغل الهاتف منادية على السكريتيرة لإحضار الشاي ، وتحرك معها القوام الجميل ، طلّت من الأفق بذلك الجسد الذي يتهادى بكل مفاتنه، نازعة الحجاب ناكصة على عقبيها ، ليظهر الشعر الزعفراني يسافر في كل ارجاء المكتب ، ترى لم نزعت الحجاب ، ولم ارتدته من البداية أصلا. هل

اعتبرتني محرما لها ، أم أنها خطة بنات الرباط في إقاع كلّ من هو بدوي في الشباك.

- لندخل في الموضوع مباشرة ، دار نشرنا تشجّع الكتّاب الشباب ،ونحن كما جاء في نص الرسالة معجبون بروايتك ونعلم أنك ستستفيد منّا ، ونستفيد منك ، ولنا شروط.

كمن يجاوب على سؤال في الرياضيات والجبر جاوب بكلمة واحدة :

- ماهي ؟
- ننشر لك ألف نسخة ، وإذا حققنا الأرباح ووُزِّعت الرواية كما نريد ستحقق أنت أيضا نصف الأرباح وهكذا دواليك .
- على بركة الله ، فلنوقّع العقد.

لكن عليك أن تساهم في الأول بمبلغ مادّي لنبدأ في النشر .

اهتزت عضلات وجهه أول الأمر كأنّه يقاوم شيئاً وقد أصبحت حروفه مثل أشواك تنخر جانبه ، ثم حرّك شفتيه ، ورفع أرنبة أنفه إلى الأعلى ، وببطء فتح فمه:نساهم بالكلمات ونكتب الرواية ونعطي من جيوبنا لتنشروا وتستفيدوا أنتم ، هكذا إذا :

أحسّت أنّ نظراته وكلماته تتّهمها ، وقالت بنبرة حارّة مسالمة في نفس الآن:

- هذا قانون اللعبة.

ابتلع ريقه ، بعد أن عبّ نفَساً عميقا وقد قست ملامحه وصوّب نظره في الهدف كأنه حفّار القبور :

- المال لكم ، والمحبة للكاتب ، الناشر يقتات من النشر ، والكاتب يعيش من عمل آخر ، في حين على الناشر أن يكون ربّ عمل للكاتب.

قفزت عن الكرسي كأن نارا تكويها وتطلعت إليه مصعوقة ، ولما تأكدت من أن جبال لأطلس المتوسط تقف أمامها ، قالت بمحاباة تلطف بها الجو، مبتسمة له وبدأت تتحدّث عن كساد سوق الكتب والصعوبات التّي تواجه النّاشرين هذه الأيام، وكيف أن السلطات ووزارة الثقافة تخلق لهم مضايقات كثيرة :

-أنت كاتب مبتدئ ، أقصد أنك في خطواتك الاولى وليس مبتدئ بمعنى عدم احترافيتك . ستعطيني نصف المبلغ ، وبعد التنقيح والنشر والتوزيع تكمل لي الباقي ، خلاص اتفقنا،ولاتسألني عن شيئا بعدها حتى أحدث لك منه ذكرا .

فاتّبع سببا حتى أيقن واستيقن أن البناية الضخمة من الخارج ، تحوي دكانا تجاريا من الداخل ، قالها في نفسه بحنق ، وياليته قال من الأول :{* إن فيها قوما جبّارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوأ منها فإنّا داخلون*}.

وبلغة واضحة بدون لغة الخشب صارحته مضيفة كلامها للكلام الأول :

- أنا تاجرة، الكتاب الذي يعطي مردودا تجاريّا أتبنّاه، وأنا لا أستطيع أن أقدّر نوعية الكتب الملائمة ، نجرّب ، وعندها إن صارت الأمورعلى مايرام سوف تحصل على مبالغك وننشر كتبك عبر ربوع الوطن ولم لا عبر العالم.

هو مبتدئ ويريد فقط أن يرى اسمه على الغلاف،وتبدأ حفلة الشهرة مع الأيام. وما عليه إلا الإذعان .

- وعليه ، متفقين ، ووقّعا على العقد ، والتقطا صورا لازال يحتفظ بها للذكرى.

وغادر فرحا حزينا ، تختلط عليه الأحاسيس،منتظرا شروق يوم العملية ، ليلمس ويتحسس ويشم رائحة صفحاته الورقية ، ربما آنذاك سيزول الألم والتعب.

ساعي البريد

لم يعد يتصرّف بالكلمات مثلما يتصرف الانسان بروث الماعز والغنم والبقر ، لا... أصبح يختارها الآن ، يجليها، ويدثرها ويبعد عنها الرجز ، ولا يطلقها على الورقة حتى تصيب جهة اليسار من صدره، ولم يعد يثق بدور النشر ، بدأ في كتابة ديوان شعري هذه المرّة ، المهم أنه حشر أنفه وكل حواسه في الكتب ، ومازال ينتظر خروج مؤلّفه الأول للحياة،ومع الأيام أصبحت الكلمات عملة نادرة وكائنات عجيبة ، لها دنياها المستقلة وتأثيرها الغريب.

لكلّ خروج سبب ، الكل يحمل العلم الوطني منتشيا بعبور المغرب للنصف النهائي من كأس العالم،هناك احتفل الكل وأُطلقت الزغاريد ، لكنّ الليلة خروج من نوع آخر،كان الهدوء سيد الموقف خلال ليلة الثامن من سبتمبر، أيلول الأحزان، قبل أن تهتز الأرض حوالي الساعة الحادية عشرة وعشر دقائق ، ليخرج الناس عن بكرة أبيهم إلى الشوارع، حاملين هواتفهم النقالة لمعرفة الأخبار التي بدأت تشير حينها إلى وقوع زلزال كبير وسط البلاد وشمالها بلغ سبع درجات على مقياس ريختر ، الكل مفزوع وأمسى الشارع أرحم من قبر الحياة ، ومن الغرف المكيفة ، زلزال لا يفرق بين الغني والفقير ، ولا بين الصغير والكبير ، ولأن مثل هذه الأحداث تجعل ڤالدي يمسك بحبال الوطن من جديد، ويشحن بطارية الإنتماء من جديد ، أخرج مذكرته

ووثّق اللحظة بأبيات شعرية

على مائدتنا المعطوبة هول زلزال ليلي

اهتزت الأرض وزلزلت زلزالا شديدا

الناس سكارى وما هم بسكارى

والشارع أضمن من القصور

وما نحن إلا قبور تدور

رويدا رويدا

تلتئم الجراح باختفاء

الشقوق

وأيادي العطاء

من كل حدب وصوب

تمتد عبر حبل التضامن

المطلوق

وتحت الأنقاض رجال ونساء

أطفال

ويافعين كبارا وشيوخ

رقصت بهم التربة ورقص الفزع بقلوبنا

اصبر ياوطني ستلتئم الجراح.

وبينما يغالب وحدته العاهرة ، ترتعش ذاكرته العجوز والتي أثقلته فلا تكاد تبرح عقله ، مهما حاول التناسي كسكارى حانة سمعوأ أذان الفجر ، ولم يبرحو كراسيهم ،ينتظر وصول طرد الرواية ، ويثقله الانتظار منذ أسبوعين على سفره إلى الرباط ،ويمطره هذا الانتظار بالقصائد والطرائد والضحكات الآفلة،لحظاته الموتورة هكذا يعبر فيها سديم المعنى فيعانق معها ضباب بحور الشّعر الدّاجن ، ويباغته حفيف حقول القصب ، فيدنو ويدنو حتى يغرقا معا في لجّة لفراغ.

الانتظار وما أدراك أن تنتظر شيئا ، هو موت بطيء كعنكبوت في سقف غرفة ، وجِلٌ وخائفٌ يترقّب مقبض الباب ، وقلبه يكاد ينفطر وينخلع من مكانه، وتُصادر أنفاسه كلّما اقترب أحدا من العتبة،وكلّما سمع وقع خطى تدنو.

عنكبوت يظن أنْ خيط " سوبر مان" وطنا ومأمناً مادام أصحاب الغرفة،في غياب . لكن أتدرون ما يقع للمنتظر ؟ هو ما وقع للعنكبوت تماماً ، ظل عالقا بين الحياة واللاحياة، وحين نظر من النافذة ، رأى صاحب البيت مُقعدا على سرير غرفة أخرى ينتظر الموت ، وينتظر الدود تأكل منسأته.

وفجأة يولد قمر الغياب والانتظار من خاصرة القرية ، على صوت درّاجة ساعي البريد الذي يحمل له ربّما أخبارا سارّة .

- أأنت كريم ،أو ڤالدي روائي القرية الجديد.

و بغتة ، تغير فيه كلّ شيءٍ ، انسكب الدّم في مقلتيْه،وأغمض عينا ، وترك الأخرى ، ورفع وجهه مائلا به نحو اليمين قليلا ، وقال:

- نعم ، أناهو بشحمه ولحمه .
- تفضّل بالتوقيع على هذا الطّرد ، ومبروك عليك مسبقاً.
- < الله يبارك فيّامك ، و في يدّيك لّي جابو الخير تال باب الدّار>

قبْل التوقيع ، فتح الطّرد وتلا الرسالة المصاحبة للكرتونة آية آية :

تحيّة طيبة كريم

بطلنا ڤالدي ، إليكم مائة نسخة من روايتكم ، أقصد روايتنا ، أتمنى أن يعجبكم الغلاف والطّبعة المنقّحة ، وقّعوها ، واهدوها للأهل والأحباب ،والباقي قد وزّعناه على المكتبات هنا بالرّباط بما فيها المكتبة الوطنية ، على أمل الشهرة في باقي المدن المغربية، ولننتظر إحصائيات البيع كما اتّفقنا.

عن مديرة دار النشر /الرباط

فرح كثيرا بالرسالة ، وبالروايات و بوصوله لضالّته بعد جهد جهيد ، ومازاد

من فرحه طريقة توصله بالطّرد غير المتوقعة ، كرتونة حبلى بنسخ روايته مرفقة بالورود ، وعن طريق ساعي البريد،الذي افتقدناه كثيرا في ظل التكنولوجيا التي أفسدت حلاوة كل شيء، ساعي البريد الذي لطالما ترقّبناه حاملا حقيبته الجلدية على درّاجة هوائية،أونارية ، يبث الأخبار جيّدها وسيّئها ، فعلا أنت صديق كل أديب ..و ضالّة كل غريب ..وجواب كل حبيب ، فشكرا يا ساعي البريد.

28

*****الثالثة ثابتة*****

ولأنه يحبّها أكثر من الدنيا نفسها ، ولأنّه لا بديل عنها إلّا الجنون أو الانتحار ، أهداها الوردة أولّا وعناقا ثانيا كالنّسمة الرقيقة والسحابة البيضاء،نفذت إلى أعماقه بقوة مدعمة بالزمن،وأهداها الكتاب ثالثا ، نعم هي الأم وما أدراك ما هي ، فرحت فرحا شديدا ، هي تعرف أن الرواية بمثابة ردّ اعتبار له ، ورفعت أكفها للسماء

< ربّي مكايسد باب ، حتى كيفتح بيبان > .

بعدها فتح بريده الإلكتروني شكر المديرة شكرا حارّا ، وتذكّر نبيل ورماه بهذه الرسالة هو الآخر سيطير فرحا بعد قراءتها.

أخي نبيل ،

كان العيش في غرفة " مي ميلودة " فوق سطوح مكناس تجربة رائعة ، لن أنسى ترنّحك في مقهى "الكابا" بين الكؤوس كالتّيس تستمتع بعنب معصور طيب خلال الانتكاس، لكن البقاء هناك خصوصا بعدك كضيف ثقيل الظل، عانيت الأمرّين بعهدا حاولت الالتحاق بسلك الشرطة لكن ثلاث سنتيمترات حالت دون ذلك ، وربما ثلاث ملايين هي الأخرى حالت دون أن أركب معهم السفينة ، فلا سمائي أقلعت ولا سفينتي استوت على اليابسة ، لكن كتبت

إليك رسالتي هاته لأخبرك أني أنهيت مادّتي الأدبية وأسميتها " والآن آن لي أن لا أئن ، عمل أدبي لملمت فيه شظاياي المبعثرة ، وستجد فيها حضورك الفعال، كما حضرت أجيل .

أريدك أن تكون من المطّلعين عليها ،وكما يحب الفارس أن يسمع الثناء على مزايا حصانه،رجوت منك أن تثني على كتابي وكلماتي، وإليك النسخة الالكترونية في انتظار عودتك لأرض الوطن إن أتيت فالوطن غفور رحيم ، لأوافيك بالنسخة الورقية ومعها الإهداء.

ت.أخوك ڤالدي.

وضع لائحة لمن يريد اقتناء الرواية ، واللائحة الأولية فاقت الخمسمائة ، وكل أسبوع يأتيه ساعي البريد الذي ألف الباب ، وألف ڤالدي حضوره حاملا ورودا ومائة نسخة ، وبدأ طريق الشهرة كما يقال :

مشوار الألف ميل ، يبدأ بخطوة.

وبين الفينة والأخرى تأتيه رسائل من دور نشر،تطلب ودّه لأعمال أخرى ، وهو بين الفينة والأخرى يُطالع بريده الإلكتروني ، الذي لم يعد راكدا كالأمس القريب ، وهو يقرأ الرسائل العالقة في الصندوق ويقارن بين الأمس واليوم فاجئته رسالة الرّد من نبيل :

أخي ڤالدي،

لن أنسى يوم سقط الصحن من يداي وأكلنا الحصى ، ولن أنسى نظرات أجيل ، لكن البقاء في الوطن كصبر من جاءه الضيف الثقيل،الحمد لله على عدم قبولك في سلك الشرطة ، لاثمن لحريتك يا صاح ، وكن أكيدا أن سفينتك ستستوي بفعل صفحات هذه الرواية وإليك هذه الكلمات :

يجب أن يكون للكاتب يدان قويتان قادرتان على القيام بكل عمل ، وقدمان راسختان ونواجد متينة ، وعليه أيضا امتلاك الذكاء والمعرفة والإبداع ، وكل هذا موجود فيك،هاهوعملك أمامي يستحق أن أعلق عليه قروطا وأجراس وزخاريف ، ودع النقاد يقولواْ ما يشاؤون ، فالشجاعة لا تحتاج إلى رفع صخرة عالية .

ت.أخوك نبيل

كانت رسالة نبيل هذه خبر مفرح له ، أضاءت سبيله الذي خُيّل له أنه يسير فيه لوحده، كان ينتظر جوابه،لينتقل لشخص عزيز ويهديه الكتاب ومعه قلبه،استمتع بنص الرسالة والكلمات الرنانة ،خصوصا عبارة دع النقاد يقولوا مايشاؤون ، استمتع بها وهو يسند ظهره للشجرة الباسقة قرب الربوة منتظرا مجيء جلنار وكأن التاريخ يعيد نفسه .بدأت الرواية في الربوة بنفس اللباس وستنتهي بالربوة وبنفس اللباس أيضا ، وهاهي قادمة مهرولة تتخبط قدماها بفستانها الأبيض ، تعانقا عناقا حارّا وفي عينيه بريق أمل في الحياة،

كانت هي الثالثة في ترتيب من سيطّلع على الرواية ، والثالثة ثابتة !!

أهداها الرواية ممهورة بتوقيع بحبر من حنّاء ، بقيت مصدومة لبرهة تتطلع لاسمه على الصفحة الأولى من الغلاف، ومعها العنوان الذي خرج من بين شفتيها يوما ما وصاحا بصوت مرتفع كأنهما آخر مخلوقين بقيا على قيد هذا الكوكب والآن آن لنا أن لا نئن .

انتهت

كانت الرياح شديدة ، والجو يُنذر برعد وبرق بدا فيه " مولاي بوعزة" سقيمة وشاحبة تئن من هول نوائب تترى ، أزقة ككرنڤال من الحفر ،كلاب سائحة وحمير تتمرغ في التراب ،شباب عاطل عن العمل يبحثون عن الأمل ، والحزن يرتدّ على وجوههم مثل كرة المطّاط القاسية، يطفئون جام غضبهم في تقبيل السجائر بعد أن يفركواْ مقدّمتها فركاً ،بقسوة يحتسونها بجنون وشغف ، صانعين منها لفائف ودوائر فوق رؤوسهم،وينظرون إليها باستمتاع وهي تقبّل السطح ؛ فلولا السجائر هنا لاشتعلت القرية بالحرائق، اللهم فلتشتعل في صدورهم، وليس في قرية نائمة كعازبة تناوب عليها اللصوص ليل نهار لفض بكرتها ومازالت تقاوم. لا أثر فيها لدرّة حياة ، دكاكين مغلقة وشوارع تصفّر فيها الرياح ويتجول الفقر على عتبات بيوتها.

آوى إلى ركنه غير آبه لا بالرياح ولا بالكلاب والحمير كمن يقفز خارج حدود الكون متأملا وجوه المارّة في هدوء تام، يبدو النفاق جوا مخيما على العلاقات ، وتبدو الكآبة مناخا يسود على القرية التي شُيِّدت عبر التاريخ من أحزان النّاس واضطهادهم،ولم ير بُدّا من احتساء الشاي واحتساء فنّ اللامبلاة كي لا يُمرِّض نفسه أكثر ، كان يقدس الشاي إذ يمنح له جزءا من الأنس وطعم الرغبة في الحياة ، ويرى في لونه المخادع لون النبيذ المعتّق، عكس القهوة سليلة العزلة ولونها كالظلام.